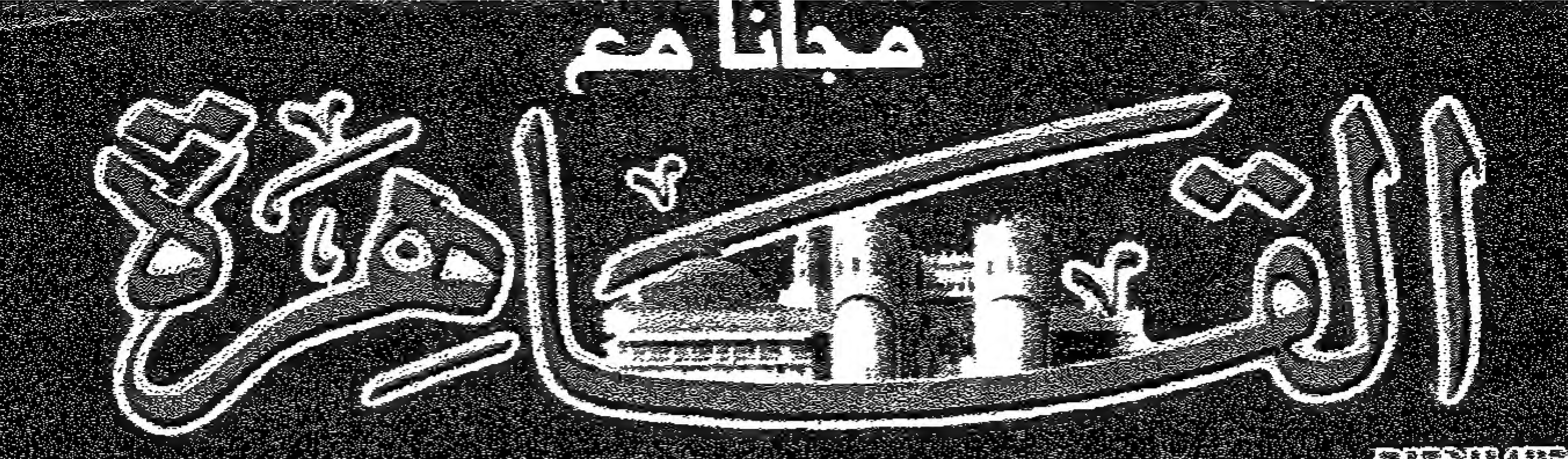


هدية العدد ٢١٨، ١٥ يونية ٢٠٠٤

مذكرات الأميرة جويدان

زوجة الخديوى عباس الثانى

بقلم: الأميرة جويدان

مجاناً مع جريدة القاهرة

القاهرة

■

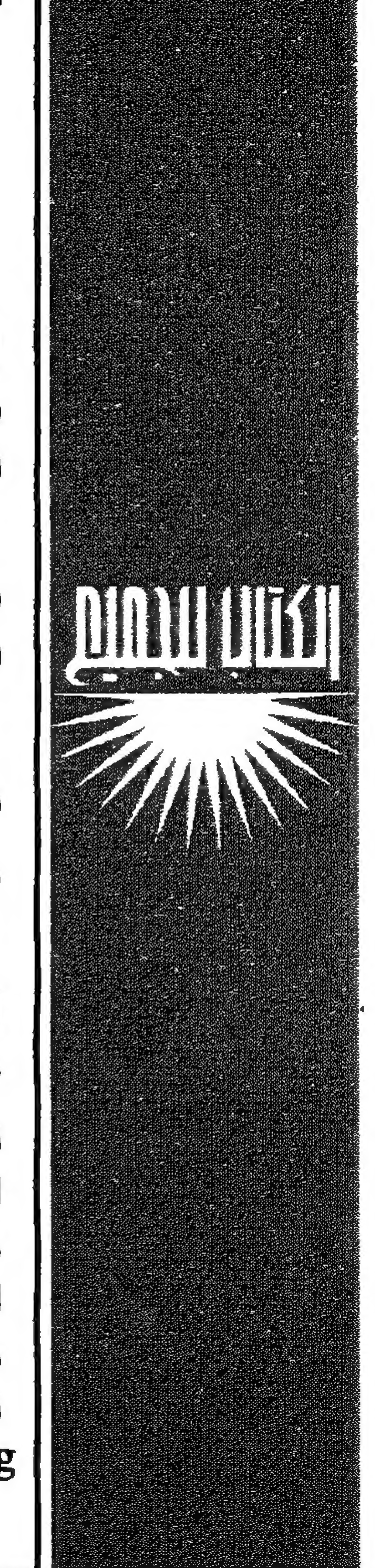
رئيس مجلس الإدارة
فاروق عبد السلام

رئيس التحرير
صلاح عيسى

تصميم الغلاف : **محمد الغول**
م . جرافيك : **محمد شرف**

■

جريدة اسبوعية ثقافية عامة
تصدر كل ثلاثاء عن وزارة الثقافة
الإدارة والتحرير :
٩ ش حسن صبرى . الزمالك
القاهرة . جمهورية مصر العربية
هاتف : ٧٣٧٣٠٤١
فاكس : ٧٣٧٣٠١٨
E-mail: alkahera@idsc.net.eg



سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص . ب . ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس ٢٣٢٢٢٨٩

www almadahouse com E-mail al-madahouse@net sy

بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

تلفاكس ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail al-madahouse@idm net lb

بغداد- ابو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير

E-mail almada112@yahoo com



٢٩

مذكرات الأميرة جويدان

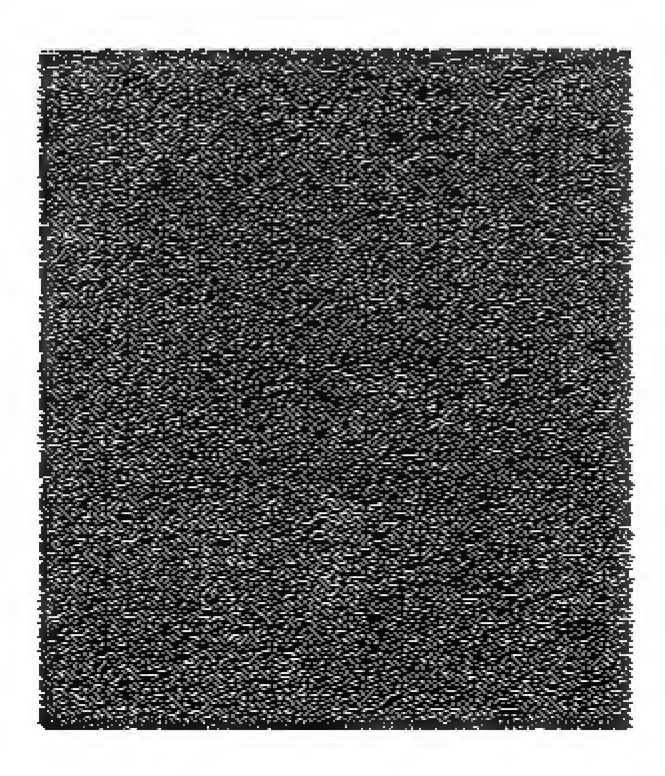
زوجة الخديوي عباس الثاني

بقلم

الأميرة جويدان

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (القاهرة)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٤



حكاية عائلة جويدان

حكم المماليك مصر فترة طويلة، والمماليك هم طائفة من الناس اشتراهم الخلفاء العثمانيون ودربوا من كان منهم صالحاً للعسكرية ليكون ضابطاً أو جندياً في جيش الخليفة، وأصبح المماليك أكبر قوة في تلك الامبراطورية التركية وحكموا البلاد الخاضعة لهم بواسطتهم.

واستقل المماليك بحكم مصر، ولم يكن الخليفة العثماني أو الباب العالي كما كانوا يسمونه، يهتم بمن هو الحاكم أو المحكوم، فان كل ما كان يهمه هو الايرادات والأموال، فالمملوك الذي يحكم مصر أياً كان اسمه عليه أن يورد إلى الخزانة التركية الجزية أو الضرائب المطلوبة من البلد بالتمام والكمال، ولا يهم كيف جمع المملوك الأموال من الناس، ولا المبالغ التي جمعت منهم، فالمهم ألا يقل المبلغ المدفوع عن الحصة التي حددت.

وطبعاً كان هؤلاء الحكام يجمعون أقصى ما يمكنهم من أموال الشعب، ويدفعون الضريبة ويستبقون ما حصلوه من زيادة لأنفسهم.

وكان تحت يد المملوك الحاكم، حكامٌ أو مماليك آخرون يحصلون من الناس، وأولئك أيضاً يحصلون بالزيادة ويستبقون الزيادة لأنفسهم كأجر لهم.

وكان المصري هو الضحية الذي عليه أن يدفع ويدفع ولا يأخذ.

وهكذا أصبحت عند المصريين عادة لازالت سائدة حتى اليوم عند البعض منا ؛ وهي عادة إخفاء النعمة خوفاً من العين، عين الحاكم، وأعوانه من الجباه والملتزمين بتوريد المال والذين يجمعون لحسابهم ولحساب رؤسائهم ولحساب الحكام ولحساب الخليفة.

وفي نهاية هذه الفترة ظهر نابليون في أوروبا، وقاد الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ وحارب المماليك وانتصر عليهم في معركة امبابة.

واستسلمت فلول المماليك عند بوابة امبابة التي بني مكانها الآن مسجد خالد بن الوليد. وسمي الشارع الذي وقعت فيه معاهدة الصلح افينو دي باي، وترجم الاسم فيما بعد إلى شارع السلام، ولا زال الشارع موجوداً حتى اليوم.

ونتيجة لحملة نابليون، التي ادعت أنها قادمة لتطبيق مبادئ الثورة الفرنسية وهي الحرية والاخاء والمساواة، ظهرت أمام الشعب المصري والمصريين مفاهيم جديدة وأفكار حديثة.

ثم زالت الحملة النابوليونية عن مصر سنة ١٨٠١، كما زالت غيرها من الحملات. وعاد المماليك محاولين أن يستردوا حكمهم ومجدهم وهيلمانهم.

ولكن المصريين كانوا قد أدركوا أن حكم المماليك ليس هو أبدع ما يكون، وان الناس لها حقوق وعليها واجبات، وليس المملوك الحاكم وحده هو صاحب كل الحقوق، والفرد المصري وحده هو حامل العبء والضغط.

وفي عام ١٨٠٥ ظهر جندي مرتزق من جنود الجيش العثماني قدم من بلدة قولة في ألبانيا يقود فرقة ألبانية كان الخليفة قد أرسلها إلى مصر لمقاتلة الفرنسيين، فاحتلت لنفسها مواقع في الجيزة وامبابة.

هذا الرجل هو محمد علي باشا الذي استطاع أن يحكم البلد منتهزاً فرصة الفوضى التي دبت في البلاد ؛ وفرصة الشجار بين المماليك على

تقسيم الغنيمة؛ ومستخدماً عقله في الايقاع بين بعضهم بعضاً، وفرصة تأخر دفع المرتبات لمدة ستة أشهر ماضية، وفرض البرديسي لضرائب جديدة لدفع المرتبات: مما أثار سخط أهل القاهرة، منتهزاً كل هذه الفرص فحارب البرديسي وباقي المماليك وانتصر عليهم.

وقبض محمد علي، على زمام مصر.

واستطاع أن يقنع المماليك بترك الحرب والإقامة في القاهرة حتى يكونوا تحت إشرافه ويأمن شرهم بعد أن آمنهم على أنفسهم.

لعبة القلعة

ولكن هل آمن محمد علي على المماليك حقاً؟

الحقيقة أنه أعد لهم مصيراً عجيباً للتخلص منهم ببشاعة.

فقد دعاهم إلى حفلة رائعة أعدت بمناسبة منح ابنه الأصغر الأمير طوسون لقب الباشوية من السلطان تأكيداً لرضاه عن محمد علي وحكمه الذي دفع الجزية من المال والرجال، والمال معروف، أما الرجال فهم هؤلاء أفراد المصريين الذين جندهم لحرب الوهابيين في الجزيرة العربية لخروجهم على طاعة السلطان.

وأرسل السلطان التركي رئيس الخصيان بقصره إلى مصر ليسلم طوسون براءة الباشوية وهدية من السلطان وهي خنجر وسيف مرصعان.

ودعا محمد على أكابر القطر وأعيانه والعساكر لحضور تشريفات البراءة، وتقرر إلباس الباشا الجديد ملابس اللقب يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١، وكان ضمن من دعي لشهود الاحتفال، مماليك مصر.. ولبس كل منهم أفخر ما عنده من ثياب وركب أحسن ما يملك من خيل، وتقلد ألمع ما عنده من سلاح.

وفي الساعة الثانية صعد المدعوون جميعاً إلى القلعة، وكان الوالي يستقبل المماليك البكوات بمظاهر التعظيم والتكريم، ويلاطفهم،

ويحادثهم فترة من الزمن يشربون فيها القهوة ثم ينصرفون من حضرته، ويضرب النفير ايذاناً بانصرافهم للانضمام للموكب.

كان ترتيب المولى كالتالي:

في المقدمة فرقة الأدلة بقيادة شخص يدعى أوزون علي، ثم الوالي، ثم آغا (الرئيس) الانكشارية، والمحتسب (وزير المالية) وخلفه عدد من الكبراء حسب ترتيبهم، ثم الألبانيون بقيادة شخص يدعى صالح فوج وبعدهم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب. وخلفهم المشاة والفرسان وأرباب المناصب.

وسار الموكب جهة ميدان الرميلة في طريق معوج منحوت في الصخر حتى باب يسمى باب العزب اجتازته مقدمة الموكب، وعندئذ أمر صالح فوج قائد الألبان بإغلاق الباب الحديدي الكبير، ثم أعطى أوامره لعساكره فتسلق الألبان على جانبي الطريق، وأخذوا مراكزهم لإطلاق النار.. وتحصنت المؤخرة أيضاً.

وصل المماليك إلى الباب فوجدوه مغلقاً، وأرادوا التقهقر ليصلوا إلى الرحبة الوسطى من القلعة فلم يتمكنوا لأن الخيول كانت تسير في نظام خلف بعضها والممر ضيق حتى انها تحتك بجوانبه الصخرية.

وفتحت النار عليهم من الخلف والأمام، ومن أعلى، وأسقط في أيدي المماليك، وارتبكوا، وسالت الدماء، ونزع بعضهم ما كان عليه من فراء وثياب ثقيلة وترجلوا عن خيولهم، وشهروا سيوفهم، وقد تملكهم جنون الحنق والغيظ، ثم اليأس فلم يكن أمامهم خصوم يحاربونهم، بل رصاص يهطل عليهم من أعلى الأسوار التي تحف بالطريق، ومن النوافذ القريبة، ومن الخلف، وسقط شاهين بك الذي كان ضمن مقدمة موكب المماليك صريعاً، وقطعت رأسه، وأخذها من قطعها وأسرع بها إلى الباشا ليأخذ البقشيش، واستطاع سليمان بك البواب أن يصل إلى باب الحريم وصرخ:

- أنا في عرض الحريم.

والعادة في ذلك الوقت أن من استنجد بالحريم ينجد، ولكن من الذي ينجده!

ووصل حوالي ثمانية من المماليك في فرارهم إلى مكان كان يقف فيه طوسون باشا وسألاه النجدة، ولكنه لم يلن لاستنجادهم.

وصارت القلعة في ذلك اليوم ميداناً للقتل والذبح، وقطعت رؤوس المماليك ليراها الباشا، وسحبت أجسادهم بالحبال، ولم يرحم أحد في هذه المذبحة حتى الخدم وأولاد أهالي البلد وغيرهم ممن تزينوا بأحسن زينة ورافقوا مواكب المماليك بنوع من التفاخر.

ولم ينج من المذبحة غير مملوك واحد هو أمين بك الذي كان قد تأخر لظرف طارئ فلم يلحق غير الصف الأخير، فلما سمع صرير الباب الحديدي وهو يغلق، ودويَّ الرصاص رجع بجواده إلى داخل القلعة، وأخذ يبحث عن منفذ للهرب فلم يجد أمامه إلا أسواراً ارتفاعها عشرون متراً فجرى بجواده إلى قمة عالية ثم استفز الحصان فوثب به في الهاوية التي تحت قدميه فتهشم الجواد. وأصاب الرجل إغماء بسيط أفاق منه بسرعة وجرى من هناك حتى وصل إلى إقليم الشرقية ومن هناك استطاع الهرب إلى مدينة عكا.

رواية اسكندر ديماس

وقد أثرت هذه المذبحة في الكاتب الفرنسي الشهير الذي عرف بكتابة قصص الفروسية، اسكندر ديماس الأب فألف كتاباً سماه خمسة عشر يوماً في سيناء وصف فيه مذبحة المماليك، وان غير في بعض الوقائع، إذ ذكر أن خمسة عشر مملوكاً قفزوا من حالق فماتوا هم ودوابهم إلا اثنان منهم نهضا من سقطتهما وهربا، ثم وصف هروبهما الطويل والخمسة عشر يوماً التي قضياها في اجتياز صحراء سيناء.

ومهما يكن فان محمد علي تخلص من المماليك نهائياً فقد بلغ عدد قادة المماليك الذين قتلوا في مذبحة القلعة أربعمائة وسبعين مملوكاً، وكان محمد علي جالساً يرقب المذبحة ويدخن النارجيلة «الشيشة» في مكان لا يراه فيه أحد ويرى منه هو كل شيء.

وبعد المذبحة خرجت جنوده إلى المدينة وإلى بيوت المماليك تنهب وتسلب وتقتل رجالهم وصبيانهم وتهتك أعراض نسائهم وتسلب

حليهن، ويقال ان امرأة أحد المماليك كان بيديها أساور كثيرة فقطع الجندي التركي يديها بسيفه ليستخرج الأساور بسهولة.

زيارة الخير

وانتهى المماليك واستتب الأمر في مصر لمحمد علي ودفع للباب العالي أي للسلطان من الأموال ما جعل محمد علي يستحق لقب الباشوية؛ وان يتقرر حكم مصر له ولأسرته من بعده بالوراثة.. وكل شيء بثمنه.

ومحمد علي، وجدها لقمة سائغة سهلة، فتحت يده بلد كبير مليء بالخير والناس والأموال فلا مانع من توسيع رقعة الأرض المملوكة، وحارب محمد علي بالمصريين في كل مكان استطاع أن يحارب فيه.. في السودان، في الحجاز، في المورة باليونان، وهي الحرب التي غرق فيها الأسطول المصري.

والمهم أن حياة وحكم محمد علي قضيا في حروب انتهت باستنزاف موارد المصري المسكين حتى مات سنة ١٨٤٩ وخلفه حفيده عباس الأول.

وانكمشت البلاد، وأصابها الفقر.

الشيفاليه

ثم جاء اسماعيل باشا إلى الحكم خلفاً لعمه سعيد باشا سنة ١٨٦٣، واسماعيل تربى في القصور، وتربية القصور الناعمة غير تربية جندي مرتزق كجده، فالجندي المرتزق رجل ضاقت به أسباب الرزق كما حدث لمحمد علي بعد أن أفلس محل الدخان الذي كان يملكه في بلده قولة فلم يجد عملاً يتعيش منه ولم يكن لديه شيء يملكه غير شبابه فانضم إلى الجيش.. أي جيش، يعمل فيه، فهو لم يحمل السلاح بنوع من الوطنية أو المبادئ، إنما هو عمل من الأعمال.

ولكن اسماعيل تربى في القصور فهو ابن ابراهيم الابن الأكبر

لمحمد علي وقائد جيوشه الذي مات تاركاً الولد لجده يدلله وينعمه، وأصبح اسماعيل بطبعه يبحث عن الترفيه والترف، واعتقد في نفسه أنه شيفاليه، أي فارس من فرسان العصور الوسطى؛ وهؤلاء الفرسان ليسوا فرسانَ حرب، بل فرسان استعراضات على الواحد منهم أن يحب امرأة ذات أهمية خاصة، يتفانى في حبها، ويضحي في سبيلها بالغالي والرخيص.

وهذه المرة كما يقول الكاتب هارولد نيكلسون في كتابه «التصرف السليم».

«تقضي تقاليد الفروسية أن لا تكون زوجة الرجل، إحدى جواريه الخاضعات له، فالزوجة لها وضع خاص في رئاسة البيت وإنجاب الخلف الصالح الذي سيرث عرش الفارس، والجاريات وغيرهن نزوات عابرة يُتسرّى بهنّ في ساعات وأوقات اللهو والمرح.

ولكن تلك المرأة يجب أن تكون شيئاً ممتازاً لها اعتبارها ووضعها، وأن تكون بعيدة المنال على الفارس لا يستطيع إخضاعها لسلطانه أو التحكم في مصيرها، وتكون هي من جانبها قادرة على الصد وعلى المنح حسب هواها.. وعلى فارسها أن يقدم ما عنده من عطايا وأن يجثو عند قدميها، ولا مانع من انزال الدمع أمامها فتمسحه له بمنديلها الخالد الذي يعد وقوعه في يده دليلاً على رضاها عنه واستسلامها له حتى إن ياجو الخائن سرق منديل ديدمونة وسلمه لزوجها عطيل فقتلها معتقداً خيانتها له في مسرحية شكسبير الشهيرة.

وهكذا بالنسبة لاسماعيل فان صاحبة المنديل كان لابد أن تكون ذات أهمية خاصة.. واختار إسماعيل أوجيني امبراطورة فرنسا.. ولكي يدعو الامبراطورة لزيارته في مصر صنع حضارة هامة تتلاءم مع أهمية شخصيتها، وكانت المناسبة التي ستحضر فيها هي افتتاح قناة السويس، وإقامة أول خط سكك حديدية مصرية من الاسماعيلية إلى القاهرة،

وإنشـاء دار للأوبـرا تتـفـرج فـيـهـا الامـبـراطورة؛ وكلف ملحناً إيطاليـاً مشـهوراً بتلحين أوبرا جديدة خصيصاً لهذا الافتتـاح هي أوبرا عايدة التي كتب مادتها التاريخية مريت بك المؤرخ ومؤسس المتحف المصري، والذي لا يزال يوجد شـارع باسـمـه في القاهرة، ومن هذه المادة التـاريخـيـة ألف كامي دي لوكلي المسـرحية.

عايدة

وتدور وقـائع أوبرا عـايدة حول القـائد رادامـيس الـذي يحب عـايـدة الحبشية التي اختطفت وبيعت لتعمل وصيفة لبنت فرعون الأميرة أمزيس التي تحب بـدورها القـائد رادامس، وهـاجم الأحـبـاش مـصـر بجـيـش ضخم يقوده الملك عمو ناصر ملك الحبش شـخصيـاً، ووقعت عايدة بين نارين، فهي ابنة الملك عمو ناصر وتدعو الله أن ينصره على القـائد الذي أحبها وأحـبتـه، ولكن رادامـيس ينـتـصـر ويأسـر أباها ويحـضـره إلى منفـيـس، وأقـيـمـت حفلة اسـتـقـبـال للقـائد، وفي الحـفـل صـاح الـنـاس طالبين قـتل الأسرى، ولكن القائد طلب من الفرعون العفو عنهم، وعفا الفرعون عنهم على أن يبقى ملك الأحباش وابنته رهائن حتى لا يعاود الأحبـاش الحرب، ووافق فرعون الذي أعلن خطبة بارادامـيس لابنته مع تعيينه ولياً للعهد.

وذهبت عـايدة إلى المعـبـد كـمـا ذهب والدها وحرضـهـا على مـعـرفـة الطريق الذي سـيـسلكه الجيش المصري من حبيبها القائد ليقابله الأحباش، وحـضـر القـائد الذي كـان يريد أن يهـرب مع عـايدة إلى حيث يتـمـتـعـان بحبهما، فهو لا يريد أن يتزوج ابنة الفرعون الأميرة أمزيس التي ظهرت في هذه اللحظة ومعها الكاهن ورئيس الحرس وأمسكوا بالقائد لخيانته.

وحـضـر الفـرعـون وحكم على بـارادامـيس بـالدفن حـيـاً، وأعـدت له حجرة تحت الأرض ودفن بها وأغلقت عليه بالأحجار.

وفي القـبـر ظهرت عـايدة التي كـانت قد غافلت الكهـنة ونزلت إلى القبر لتموت مع حبيبها.

وانتهت الأوبرا بباراداميس يحتضن حبيبته عايدة وسط الظلام.

وهكذا فان إسماعيل باشا الذي تخيل نفسه فارساً من شيفاليهات العصور الوسطى قد نجح في علاقته بالامبراطورة أوجيني التي ظلت محافظة على العهد حتى بعد أن زال عنها وعنه العرش؛ فهي تزور أسرته مرة كل عام لتجتر الذكريات كما جاء في مذكرات الأميرة جويدان.

النقطة السوداء

والمهم أن مشاريع إسماعيل كثرت وزادت فغرقت البلاد في الديون. وفي نفس الوقت خافت الأسرة منه فاستطاعت أن تعزله عن العرش وتعين توفيق بدلاً منه.

وتوفيق في تاريخنا نقطة سوداء، إذ يبدو أن الأسرة التي عزلت إسماعيل النشيط رأت أن تعين أضعف أمرائها شوكة؛ خديوياً جاهلاً لا يدرك مجرى الأمور فحين طالب الضباط المصريون مساواتهم في المرتب بالضباط الأتراك في الجيش تصرف معهم بطريقة أدت إلى قيام الضباط المصريين بثورة ضده بقيادة عرابي.. وهو بدلاً من إرضاء الثائرين قرر إغلاق المدارس التي تسببت في تعليم الناس ان لهم حقوقاً، كما أغلق المصانع التي أدت إلى وجود تجمعات عمالية ثم...

ثم كانت الجريمة حين استنجد بالجيش الإنكليزي ليضرب المصريين ويحتل مصر.

زوج جويدان

وفي سنة ١٨٩٢ توفي توفيق واستدعي ابنه الخديوي عباس حلمي الثاني آخر الخديويين المصريين؛ فقد أبطل اللقب من بعده وسمي من حكموا بالملوك.

كان عباس في الثامنة عشرة يدرس في كلية «الترزينوم» بالنمسا وهي كلية مخصصة لأبناء الملوك والأمراء.

وبدأ عباس حكمه بمسرحية، فطلب من رئيس الوزراء مصطفى فهمي الذي اشتهر بأنه صنيعة الانجليز أن يقدم استقالته بسبب سوء صحته، ولم يستسلم رئيس الوزراء، بل طلب من الخديوي استشارة اللورد كرومر، وكان كرومر هو المعتمد البريطاني في مصر، والحاكم الانجليزي الفعلي لها، فما كان من الخديوي إلا أن أصدر قراراً بإقالة الوزارة لاعتلال صحة رئيس الوزراء، وعين بدلاً منه حسين فخري باشا.

وقابل المصريون هذا التغيير بفرحة وأمل.

ولكن كرومر لم يستسلم له وهدد عباس، وانتهى الأمر بتعيين وزارة جديدة ورئيس وزراء جديد هو رياض باشا، وأرسل الخديوي خطاباً إلى اللورد يستسمحه ويعلنه أنه سيأخذ بنصائحه في المستقبل.

كانت المسرحية الثانية حين سافر إلى الصعيد في رحلة عسكرية للتفتيش على الجيش؛ وفي ١٧ يناير سنة ١٨٩٢ وعند حدود السودان في بلدة حلفا استعرض فرقة عسكرية مصرية بقيادة ضباط انجليز فأبدى انتقادات أغضبتهم وأدت إلى أن اللورد كتشنر سردار الجيش (أمين سر) في ذلك الوقت قدم استقالته، فاضطر الخديوي إلى الاعتذار له رسمياً.

على أن أهم حادث في عهده هو حادثة دنشواي.

وفي ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ كان بعض الضباط الإنجليز يصطادون الحمام في بلدة دنشواي، وهي بلدة تابعة لمحافظة المنوفية واسمها الآن «الشهداء».. وقد أصابت رصاصة من رصاص الإنجليز حطباً في جرن فأوقدت فيه النار وجرحت امرأة تصدت لهم فهاجمهم الأهالي ودارت معركة بالطوب ضد الإنجليز.. وأصيب بعض الضباط وجرى أحدهم لمسافة كيلو مترات سقط بعدها ميتاً، وثار الإنجليز وأجريت محاكمة في شبين الكوم وحكم بالإعدام على أربعة كما حكم على آخرين بأحكام مقيدة للحرية مختلفة بين الأشغال والسجن وحكم على البعض بالجلد.. وشنق الأربعة في نفس بلدتهم دنشواي أمام أهلهم وأقاربهم.

وكان عباس معتاداً على السفر إلى الآستانة في تركيا لقضاء الصيف هناك، وفي صيف سنة ١٩١٤ وهو في مصيفه هذا أطلق عليه شاب مصري الرصاص فأصيب بجروح وقتل الحرس الشاب المصري، فلم يعرف الدافع للجريمة.

وفي نفس السنة قامت الحرب العالمية الأولى، وما دام الرجل لم يمت بالرصاص فليخلع عن العرش، وهكذا خلعه الإنجليز من منصبه ومنع من العودة إلى مصر وعين بدلاً منه السلطان حسين كامل أكبر أمراء أسرة محمد علي سناً.

وجويدان زوجة هذا الخديوي كما نرى من مذكراتها التي كتبتها تريد أن ترينا أنها امرأة طيبة خيرة متدينة، وأن زوجها أيضاً يتميز بهذه الصفات، ولكن القلم يفلت منها في بعض الحالات فيظهر الرجل على حقيقته، جاهلاً محباً للمال، فهو كرجل جاهل يعتقد أن قراءة الكتب مضيعة للوقت، وهو حين يراها تقرأ في كتاب يسألها:

- ما هذا الحمار؟

ثم هي تحدثنا عن عقلية زوجها التجارية التي جعلته يهتم بالتجارة والمال وتنمية الثروة أكثر من أي شيء آخر.. والحق أن عباس كان ناجحاً في هذا المجال فانه عندما تأكد أنه لن يعود إلى مصر تنازل للملك فؤاد عن العرش مقابل ثلاثين ألف جنيه كراتب سنوي، كما أنه لما مات في جنيف يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤ قدرت ثروته رسمياً بحوالي سبعة ملايين من الجنيهات.

والقارئ لمذكرات جويدان يلاحظ أنها تجاهلت الأحداث السياسية، ربما لأنها حين كتبت مذكراتها خافت من أن تقحم في ألاعيب السياسة.

سعد رضوان

الأميرة تصف الأفراح
والحفلات المصرية

قالت الأميرة جويدان في وصف الأفراح والاستقبالات المصرية:

«لا توجد أمة في العالم تتفنن في إقامة أفراحها كلها كما يفعل المصريون، فانهم لا يدخرون شيئاً من أسباب السرور والانشراح إلا أدخلوه في أفراحهم مهما كلفهم هذا، وليس ذلك مقصوراً على الأغنياء والموسرين منهم فقط، بل العائلات المتوسطة والفقيرة أيضاً تنفق على الأفراح نفقات تربو كثيراً على ما تسمح به ثرواتها، وكثيراً ما يكون الزواج سبباً لإفلاس بعض العائلات وضياع مالها، وأكثر النفقات تكون في ليلة الخطبة في بيت الزوجة، وليلة الزفاف في بيت الزوج، ثم وصفت حفلة زفاف، ودهشت كثيراً لتنوع أسباب اللهو والهدايا الغالية.

وصف حفلة زفاف

كانت العروس ابنة لأحد الباشوات، تتجاوز سنها الثالثة عشرة، وكانت مصابة بالتهاب رئوي شديد، ولكن الطبيب قرر أنه لا خطر هناك يستدعي تأخير موعد الزفاف، فضلاً عن أن التأخير في ذاته يكبد خسارة كبيرة، إذ تُستدعى في ليلة الزفاف عدة أجواق تمثيلية ومطربون وراقصات وغير ذلك، أضف إلى هذا أن المصريين جميعاً يتشاءمون من تأخير الزفاف عن موعده.

كانت أسباب السرور بالغة جداً لا يتصورها العقل، فالمصري في إقامة أفراحه يأبى أن يستمع لصوت العقل، ويتبخر تفكيره تحت أشعة الشمس الحارة، ويستسلم للأمل (إن شاء الله)؛ فربما أنتج القطن

محصولاً جيداً يعوض عليه كل هذه النفقات، ومصر بلد العجائب، فكل شيء فيه جائز.

عند الساعة الثامنة مساء نبهتني وصيفتي في سراي (مسترد) إلى أن الوقت قد حان لارتداء ملابسي والذهاب إلى الحفلة، فلم أر بُدّاً من أن أتبعها إلى غرفة الزينة، واستسلمت لأيدي الوصيفات الكثيرات حتى تمت زينتي، وبعد أن ثبت (اليشمك) في (الهرطوس) بطريقة لطيفة، ركبت العربة إلى حفلة الزفاف، وفي الطريق جعلت أفكر في هذه العروس الطفلة!!

ترى هل ستكون سعيدة؟ لأنها لا تزال طفلة وخطيبها لم يزل فتى صغيراً، فهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وقد كان رفيق طفولتها وطالما لعبا معاً، فلما أراد الحجاب أن يفرق بينهما جمعهما الزواج، وأصبح رفيق الطفولة رفيقاً للحياة، وهذه الحالة نادرة في مصر، فغالباً لا تعرف العروس عن خطيبها شيئاً ولا تراه إلا خلسة من وراء ستار نافذة مشبكة بالحديد، فيا ترى أي عاطفة تجيش في صدر الفتاة نحو ذلك الغريب الذي سيصبح زوجها، انه سينقلها من دور الفتاة إلى دور الزوجة، ولكن هذا هو كل شيء، فالجو الذي سيحيط بها لن يتغير عن الجو الذي أحاط بها في بيت أبويها، فالنوافذ مغلقة والأبواب موصدة والأغوات على الأبواب والجواري يقمن بالخدمة، وغاية ما هناك أنه تبدلت وجوه الخدم، فهل تستطيع الفتاة أن تحب مثل هذا الزوج؟ ولنفرض أنها تريد أن تحبه، فهل تستطيع أن تنفذ هذا العزم؟ وهل الحب سلعة تؤخذ بالمساومة؟ أليس الحب قوة قاهرة لا تستطيع النفوس صدها، فهل ضَعُفَ الحب حتى إنه لا يستطيع كسر هذه الأغلال، أم أصبح الناس لا يستحقون نعمة الحب؟

تدفقت الأنوار إلى داخل العربة، وصدحت الموسيقى، واصطف الناس، وتمهلت الخيل في سيرها ليتسنى للقوم ذبح الذبائح أمام العربة إكراماً لي، وأخيراً وقفنا أمام باب الحريم، حيث استقبلني عدد كبير من النساء والجواري، فنزعت قناعي وعطفي، وقدمت إلى مرآة مرصعة

بالجواهر لأتفقد زينتي، واستقبلتني على رأس السلم أم العروس وأم العريس (وداد هانم) وهذه الأخيرة تعتبر فرداً من أفراد العائلة ولها المقام الثاني بعد الأم.

ولم أستطع - رغم محاولاتي - منع النساء من تقبيل ثوبي، وسرت بين مظاهر الترحيب والسلام إلى الصالون الذي أعدوا لي فيه مقعداً كبيراً مغطى بالكشمير، وجلست باقي السيدات على وسائد من حرير.

القهوة

ثم جاءت القهوة تحملها (قهوجي كلفا) على صينية مستديرة وجعلت تصبها في فناجين أطباقها مرصعة، وفي فنجان تحمله جارية إلى الهوانم وهي خافضة الرأس، ثم اتجهت كل الأنظار لي. لأن التقاليد تقضي بأن أكون أولى البادئات بشرب القهوة وهن من بعدي.

وبعد الانتهاء من شرب القهوة الأولى - أقول الأولى لأنه سيعقبها قهوات، فمن عادة المصريين أنهم يديرون القهوة على الجميع كلما جاء ضيف جديد - طلبت رؤية العروس.

العروس

أرادوا إحضار العروس إلي، ولكنها رفضت؛ وأبيت إلا أن أذهب إليها بنفسي إكراماً ليومها السعيد. فوجدتها جالسة على مقعد عال في صالون خاص، فكانت كالتمثال المعروض، ولما رأتني مشت إلي، فتأثرت لمنظرها، واحتضنتها بين ذراعي، ثم أخذت بيدها إلى مقعدها، فانني أعرف أنها مريضة لا تستطيع الوقوف رغم ما تبديه من جلد في مغالبة آلامها وإخفاء ما تشعر به وهي تبتسم لجيش النساء الذي يمر أمامها، وكل واحدة تدعو الله أن يقيها شر العين والحسد. وتختلس النظرات إلى المجوهرات تحاول أن تقدر ثمنها.

كـانت العـروس ترتـدي ثوباً من الأطلس مـوشى بـالذهب؛ وعلى رأسها تاج مرصع بالجواهر؛ يتدلى من تحته نقاب يشمل كل جسمها، وفي هذا النقاب أربعة أحجار كريمة عند الجبهة والذقن والخدين، وفي أذنيها قرطان من البرلنت، وفي جيدها ويديها عقور وأساور لا عدد لها.

كانت الدادة تنتهز فرصة خلو الغرفة من الزائرين لتقدم إلى ربيبتها شيئاً من المرطبات لتجديد قواها، فشعرت بدمعة تترقرق في عينيَّ رثاء لتلك الفتاة، وحولت وجهي عنها وأنا أغالب نفسي كي لا تسبقني الدموع، إذ لا يجوز أن أبكي وبخاصة في هذا الموقف، وكأن الدموع عرفت حرج مركزي فأجابت ندائي وامتنعت.

ثم شاهدت الهدايا المقدمة للعروس، وإلى جانبها الهدايا المقدمة إلى الدادة، وهي هدايا من أنفس ما رأيت، وكانت معروضة في غرفة خاصة، فيها سرير العرس، وهو سرير فاخر، قوائمه الأربع مرصعة بالأحجار الكريمة، ولكن هذا السرير لا يستعمل إلا ليلة العرس، ثم يحفظ بعد ذلك كتذكار جميل لتلك الليلة السعيدة.

انتقلنا بعد ذلك إلى الشرفات والنوافذ لنشرف على الألعاب الرياضية التي تجري في السلاملك، فجلست في شرفة على مقعد وثير يحيط بي سرب من الهوانم ينظرن إلى أي إشارة من يدي ليقدمن لي السجاير، ولا أكاد أشير برأسي حتى أجد أنواع المرطبات أمامي، وكان كل هذا يجري بلطف وكرم ولا تكلف فيه، فالكرم عند الشرقيين ليس ظاهرة متكلفة، وإنما هو شعور داخلي فياض، حتى إن الضيف يشعر بأنه فرد من أفراد العائلة.

زفة العروس

أعلنت ربة البيت بأن الزفة ستبدأ، وهرعت السيدات إلى غرفة الاستقبال، ووقفن صفين، وحملت الجواري إلى الهوانم أكياس الذهب، ثم فتح الصالون ووقفت العروس على بابه برهة، ثم بدأت تسير بخطوات صغيرة، وقد تدلت من التاج الذي على رأسها خيوط طويلة من الذهب، وسارت الدادة وبعض

الجواري أمام العروس يدعون لها بالوقاية من العين والحسد، وكلما تقدمت انحنت لها السيدات، وألقين الذهب والزهور تحت قدميها، وكل سيدة تحاول أن تأخذ خيطاً من الخيوط الذهبية، لأنهن يعتقدن أن هذا يجلب الحظ، وبعد أن أتمت العروس طوافها عادت إلى الصالون وجاءت الراقصات.

الراقصات

كانت أجسام الراقصات تقريباً عارية، وجعلن يَتثنّيْن ويتلوين على نغمات الموسيقى، ثم يقتربن برؤوسهن من الزائرات وينظرن إليهن بتوسل، فكانت الهوانم يلصقن الذهب في وجوه الراقصات، فلما لم يعد في وجوههن مكان خال أخذت قبضات الذهب تتناثر عليهن وهن يلتقطنه بين صيحات الفرح والسرور، وبعد ذلك عدنا إلى الشرفات لنرى ما يجري في السلاملك.

زفة العروس

وبعد أن فرغنا من تناول العشاء وشرب القهوة، طلبت ربة البيت من السيدات السماح للعريس بالحضور بنفسه لشكرهن على التنازل بالتشريف، وطبعاً أجابت السيدات الطلب بأدب وأخذت كل منهن تصلح زينتها وتتفقد ملابسها، ثم وقفن صفين في انتظار العريس.

وقف العريس في الباب مبهوتاً، وقد أخذه بريق الجواهر ولألأة الوجوه التي تنظر إليه؛ ثم انحنى حتى كاد يلمس الأرض، وكان في انحنائه يشعر بأنه يقدر الجمال الذي يراه، ويشكر السيدات على سماحهن له برؤية وجوههن سافرة، وأخذ ينتقل من وجه إلى وجه كأنه يريد أن يشبع النظر من تلك الوجوه، ثم أخذته أمه من يده وقادته إلى مكاني، حيث قدم لي القهوة بيد ترتعش، ولما انتهيت من شربها انحنى مرة أخرى وغادر الصالة.

أغرب هدية

وفي هذه الليلة وقع ما أدهشني وعقد لساني، ولأول مرة في حياتي أغلق علي فلم أعرف ماذا أصنع!!

انحنت أمامي زوجة أحد الوزراء وقالت: «يا صاحبة السمو، لقد عجزت عن اختيار هدية تعجب سموكم، فعندكم كل ما تشتهيه الأنفس، وليس لي إلا أن أقدم لكم أعز شيء عندي» ويظهر أن السيدات كن يعرفن هذه الهدية النفيسة، لأنهن كن يتبادلن النظرات!!

ذهبت الهانم وعادت تقود طفلاً صغيراً في يدها، يبلغ من العمر خمس سنوات... إنه طفلها... ومع ذلك فهي تقدمه هدية إلي..!! ولأول مرة في حياتي لم أعرف ماذا أصنع.. وجمدت في مكاني، وتقدم الطفل حتى أخذ مكانه عند قدمي.. ولكي أنقذ موقفي أخذت الطفل بين يدي، واستعضت عن الكلمة بالقبلات.. ولكن موقفي مازال حرجاً، فاني أشعر بأنه يجب أن أفعل شيئاً أو أقول كلمة، ولكن المفاجأة عقدت لساني، فخانني الكلام.. ومن ذا الذي يتصور أن الأطفال تدخل في باب الهدايا.. وما عسى أن يكون شعوري نحو هذا الطفل.. لقد أصبح الآن طفلي.. ولكن هذا جنون.. لماذا أهدتني هذه السيدة طفلها؟؟ إنها لا تعرفني ولا تعرف عني شيئاً.. انها لا تعرف إلا أنني زوجة الخديوي، ولهذا أهدتني طفلها.. إذن فالطفل لم يهد إلي أنا.. وإنما أهدي إلى زوجة الخديوي.

لم يستغرق هذا التفكير أكثر من بضع ثوان.. رفعت بعدها رأسي إلى السيدة وابتسمت.. ثم أجلست الطفل جانباً.. وعانقتها.. فالإنسان قد تخونه الألفاظ أحياناً.

ولما علم الخديوي بمجمل القصة امتعض في نفسه، وأصبح الطفل حملاً ثقيلاً علينا، ولم ندر كيف نخلص من هذا الموقف، إلى أن أنقذ الطفل نفسه، فانه بعد ثلاثة أيام امتنع عن الطعام وأكثر من البكاء، طالباً أمه التي تخلت عنه لغرض في نفسها.. فأعدته إلى أمه ومعه عربتان محملتان بالهدايا.

أثناء الحرب بين تركيا وبلغاريا

كيف كانت الحياة في سراي المنتزه؟

منذ بضعة أيام أرسل الخديوي يخته الخصوصي (المحروسة) إلى قولة، وأمر الربان أن يحضر معه كل من يستطيع إحضاره من الهاربين بدون تفرقة في الجنسية أو الدين، وأعدت سراي رأس التين مأوى لهؤلاء الهاربين، فكنا نسافر صباح كل يوم من سراي المنتزه إلى سراي رأس التين كي نبدأ العمل على الفور في تهيئة الغرف الخالية في السراي لتكون مأوى للهاربين.. قسم منها للرجال وقسم للنساء.

دبت الحياة في الصالات التي ظلت مقفلة مدة طويلة، فأقيمت فيها مئات الأسرة والمراتب حتى أصبحت شبيهة بالملاجئ.. وأعدت بعض الغرف للأطفال.. وكذلك أعدت بعض الموائد في منعزل لغسل ملابس الرضع وتغذيتهم.. وكان يصل إلى السراي كل يوم عدد وفير من الصناديق من تجار مصر والاسكندرية الذين أرادوا الاشتراك مع الخديوي في ايواء هؤلاء المساكين، وكانت الصناديق تحتوي على مواد غذائية وأقمشة وملابس وأحذية وشرابات ودخان وسجاير وغير ذلك، وكانت هذه الصناديق تفرز ويوضع كل شيء في القسم المخصص له.

وكان الخديوي لا يمل العمل ولا يناله التعب، فكان يشرف على كل شيء بنفسه، وكان الإنسان يرى طربوشه الأحمر في كل مكان، وكان إذا رأى الفراشين يتباطأون في فتح صندوق أخذ الكماشة منهم وسحب

المسامير وأزاح الغطاء، وكان ماهراً جداً في هذه الأعمال، حتى إنني أهديته صندوقاً به مختلف الآلات الصغيرة مصنوعة من الفضة، وأظن أنه مازال يستعمل هذه الآلات إلى الآن.

وكانت هذه الأعمال لا تعوق الخديوي عن المقابلات، فإذا حضر أحد لمقابلته، أسرع (التشريفاتية) يبحثون عن سيدهم في غرف القصر الكثيرة، فإذا ما ظفر به أحدهم بعد جهد، كان منظر الخديوي وملابسه لا يسمحان بالمقابلة، فيسرع الخديوي إلى غرفته الخاصة، لدرجة أن (التشريفاتي) لا يستطيع اللحاق به، وهناك يعد له خادمه الانجليزي (فريدريك) ما تيسر من الملابس للمقابلة.

وعند الظهر نتناول الغداء على خوان صغير مستدير، وضع لنا حيث نريد، وكنت أرتدي معطفاً من الكريب دي شين فوق ملابسي، وأغطي رأسي بقناع خفيف، ففي هذه الملابس كنت أستطيع الظهور أمام الرجال، ويقوم على خدمتنا بربري واحد.

وما كان أشهى الغداء معه، ولم أر إنساناً يجيد (تقشير) البرتقال مثله، ونتحدث عن أشياء كثيرة، وكان ينقصني في قسم الأطفال اللبن وزجاجات اللبن والبودرة، ولو أنني ذكرت مائة شيء لما نسيت ذاكرته الحادة شيئاً منها. فإذا مضت مدة لم نتقابل فيها ثم رأيته بعد ذلك، كنت أدهش لمنظر وجهه.. إنه وجه جميل، تنبعث من عينيه الرماديتين نظرة حادة، وكان حاجباه يشعران بالشك، ولكن كم كان يتغير هذا الوجه عندما يبتسم، فانه يصبح جذاباً. ولم أر مثل هذه الجاذبية في وجه غير وجهه، وكان فمه أجمل شيء فيه، فانه كان يشبه فم الأطفال، وعندما كنت أقول له ذلك كان يضحك كالأطفال، ثم يقول لي (يا طفلتي) ثم يعقب هذا مداعباً بقوله: «يا عروستي الصغيرة» وفي الواقع كنا نلعب كالأطفال، فكنا نلعب كثيراً مع الكلاب التي كنا نحبها على السواء، وكنا نتسابق في الغرف والممرات، ويجري الواحد منا في أثر

الآخر، وكنا أحياناً نشرب القهوة بصوت عال جداً كما لو كنا من العامة أو نلفظ نواة تمر الكريز من الفم لنرى أينا يستطيع قذفها أبعد من الآخر، ولا ضرر في ذلك فانها كانت تقع في حديقتنا. وغاية ما هناك كان الحراس يندهشون، بالاختصار كنا نحب بعضنا.

على أنني هنا لا أريد أن أكتب عن الحب وإنما أكتب عن البغضاء. عن الحرب. عن التشريد. عن الجوع.. ترى كم سيكون عدد الهاربين الذين ستنقلهم المحروسة؟ والآخرون المتخلفون في قوله، ما هو حالهم؟

عندما أهدت القيصرة «أويجينا» يخت المحروسة إلى إسماعيل باشا جد عباس حلمي لم تكن تفكر في أن هذا اليخت سينقل جماعة من الهاربين. وأن أقدامهم الحافية ستدوس على فراشه الفاخر، لطالما أقلنا هذا اليخت في رحلات جميلة.

وبعد الغداء يبدأ العمل من جديد، وكان علي أن أرتب ملابس الأطفال، تساعدني في ذلك وصيفتي (هرملين) ومدربتي على الألعاب الرياضية (مايسكي) فكنا الثلاثة نقوم بعمل شاق. وكانت (مايسكي) تشجعني على الاستمرار في العمل بقولها «إن هذا الاجهاد مفيد يا صاحبة السمو فانه يحفظ للجسم رشاقته» ولكني بالرغم من هذا الاغراء كنت أشعر بالسرور عندما يدعونني لتناول (دندرمة العصر) مع الخديوي، وكان يحب الدندرمة التركية، وهي المخلوطة بالقشطة. وفي هذه الأثناء ورد تلغراف بأن المحروسة ستعود حاملة ألفي هارب مسكين فشعرت بخجلي أمام نفسي لأني كنت أتناول الدندرمة الشهية وهؤلاء حط عليهم البؤس.

وفي المساء أثناء عودتنا إلى سراي المنتزه كنت أفكر طول الطريق في هؤلاء الهاربين، ولما استلقيت في فراشي وأسدلت (هرملين) الناموسية لتحمي جسمي من عضات البعوض شعرت ببغضاء نحو نفسي.

***

أمس وصلت المحروسة.. هل كان ذلك أمس؟ هل تستطيع العين أن ترى هذا البؤس الكبير في مثل هذا الوقت القصير؟ وقفنا على سلم رأس التين ننظر إلى البحر وقد نشرت صفحته تحت أشعة الشمس. وظهرت في الأفق سفينة تجري.. المحروسة.. بالرغم من بعد المسافة فقد كانت أصوات الركاب تصل إلى آذاننا، وكأنما كانت السفينة تحمل بكاء ودموعاً. واقتربت السفينة ووضحت الأصوات. وألف البؤس بين مئات الأنفس. فأرسلت موجة مظلمة من صيحات الألم تشق طريقها بين أمواج البحر إلى قلوب من يواسيهم ويشفق عليهم فشعرت بانقباض في قلبي، وكأنما كانت تسيل منه الدموع. فمددت يدي لأمسك بيد الخديوي وقلت له «هيا بنا نساعدهم» ولكني لم أجد الخديوي إلى جانبي. إذ كان قد ذهب.. كنت في مكاني وحيدة.

أشباح تدثرت في خرق بالية، وقد فاحت رائحتها وهي تتدفق من السفينة إلى سلم رأس التين فكانوا أشد الناس شبهاً بالبشر، فان ظلم الإنسانية سلبهم حقهم في الحياة، وجعل منهم مشردين بؤساء مخبولين. لا مأوى ولا أمل. فلم أتمالك نفسي من صب اللعنة على من كان السبب في بؤس هؤلاء وامتلأت السراي الهادئة - التي أعدت لراحة حاكم البلاد - بأصوات البؤس والبؤساء!!

وقفت في الصالة وامتدت أيدي النساء إلى خرق بالية قذرة لفقن فيها أطفالهن الجياع. فأي ذنب جناه هذا الطفل المسكين حتى يجوع ويعذب؟ أي فائدة تعود على هؤلاء الوحوش البشرية من قتل الأطفال؟ ما أبعد الإنسانية عن الشعور!!

كنت أخرج الأطفال من اللفافات القذرة. وقد نال منهم الاهمال حتى أصبحوا لا يزيدون عن انهم كومة من لحم تدب فيها روح، وكانت الأمهات قد حملنهم أسابيع وشهوراً يهربن من مكان إلى مكان والخوف يطاردهن، حتى عندما آوتهن السفينة كان الخوف لا يزال مستحوذاً

عليهن فأبين مفارقة أطفالهن لحظة، ولما وصلن إلى رأس التين كن لا يصدقن أنهن قد نجون، فكانت كل امرأة تتلمس طفلها وتضمه إلى صدرها لتتأكد من وجوده معها، وكثيراً ما سلمني النساء مع أطفالهن بعض المسدسات والخناجر، ولعلهن كن قد أعددنها للدفاع عن أطفالهن، فما أفظع الأيام التي تقضي على المرء أن يقتل نفساً للدفاع عن أخرى، وقد جُنَّت امرأتان كانت قد مضت عليهما مدة وهما تتهربان من مكان إلى مكان والخوف يملأ قلبيهما، فلما اطمأنتا إلى مكان واستراحتا من الهرب تجسمت في مخيلتهما الحوادث الماضية بشكل أشد وأروع فطار عقلاهما شعاعا.

لم تكن مساعدة هؤلاء سهلة كما قد يتصور الإنسان، ولو أنهم استطاعوا قراءة قلبي لكان من السهل التغلب على الصعوبات، وكانوا يعانون صعوبات كبيرة في إدخال هؤلاء إلى الحمام، وكنت قد عهدت بالحمامات إلى أحسن خادماتي، وهن بولونيات من مدينة «أونيول» القريبة من الآستانة، ولهذا كن يجدن اللغة التركية، ولكن النساء لما علمن أنهنَّ غير مسلمات خشين منهن شراً وأبين الاستسلام إليهن في نزع الملابس والاستحمام، مع انهن كن من الضعف بحيث لا تستطيع إحداهن أن تحرك يدها؛ وكان لابد أن يغتسلن لإزالة ما علق بهن من الأوساخ، وتغيير ملابسهن البالية القذرة بأخرى نظيفة لكي يستطعن الراحة، فذهبت إليهن، وكن يعرفن أني هانم أفندي، ويأتمنني على أطفالهن، فقلت لهن مهدئة (الخادمات مسلمات لأنهن يؤمن بالله) وبذلك استطاعت الخادمات مزاولة العمل، وأما الملابس القديمة فكانت تحرق على الفور، وكان العمل كثيراً ومستمراً كدولاب لا يقف، على انه لم يكن قسمنا هو الوحيد الذي يعمل، بل ان أكثر العمل كان على عاتق رئيس الأطباء الدكتور (كاوتسكي بك) فانه ومن معه كانوا يفحصون كل واحد من الهاربين فحصاً جيداً، فكان منهم المرضى

والجرحى، وبعض النسـاء كن هاربات بحروق شـديدة، فـمـا أشـد بؤس هؤلاء المساكين الذين ذاقوا كل ويلات الحرب القاسية.

أما الخديوي فكان يعمل في قسم الرجال، وكان يأتي ليراني بين حين وحين، فكان منظري وأنا أحمل طفلاً بين يدي غريباً عليه، لأنه لم يألف ذلك مني، وكان قلبه يخفق لرؤية الأطفال على العموم. وأذكر أننا كنا في رحلة، فلما وقف القطار الخاص في إحدى المحطات. هتف مئات من الأطفال.. اصطفوا في المحطة (أفندي مزجوق يشا) وقد أثر صوت الأطفال على الخديوي لدرجة أنه لم يستطع أن يحدث مستقبليه. نعم أنا أعلم أن لي قلباً رقيقاً.. وفي المساء كنا نستقل القطار إلى سراي المنتزه بعد أن أدى كل منا عملاً مشكوراً.

***

لا يزال العمل مستمراً في رأس التين سائراً من تلقاء نفسه، وبدأ يزول عن الوجه ذلك الأثر الذي رأيته من نفوس الهاربين في اليوم الأول، وهو الذي محا الشخصية الفردية وألّف بين قلوب الجميع فجعل منها كتلة واحدة متضامنة، ولكنهم ما كادوا يحتكون بالحياة مرة أخرى حتى اختلفت مشاربهم وعاداتهم، وبدأت العائلات «الراقية» تفصل نفسها عن العائلات «الدنيا» فليت شعري متى تزول هذه الفوارق؟ ألا يفكر الإنسان في التنازل عن تلك الفوارق إلا إذا حلت به المحن وطحنه البؤس؟ أليس الناس كلهم سواء؟ أم تراهم لا يشعرون بذلك إلا عندما تمتد إليهم يد الموت؟ ألا تجمع الأمومة بين كل الأمهات فيحببن جميع الأطفال كما يحببن أطفالهن؟ أم أصبح الشعور وقفاً على من اتصل بنا بالاسم أو بالقرابة؟ واهاً للشعور إذا كانت حدوده «أنا» و«نحن» وإذا كان منتهى ما يصل إليه هو تجزؤ القوة العامة وتحويلها إلى ملكية فردية. ألا يحمل هذا التجزؤ عقاب الإنسانية بين طياته؟ أليس هو السبب في تناكر الناس وموقف بعضهم من بعض موقف الغريب؟ وشعور الفردية

هذا بين الناس يجعلهم ينفصلون واحداً عن آخر.. وهنا تبدأ العداوة.

إذا كانت قيمة ما يفعله المرء لا تظهر إلا إذا اختص بها أناساً دون آخرين، فليست هذه الأعمال إلا أنانية من الإنسان وشعوراً كاذباً لا يصل أثره إلى أبعد مما يصل الإنسان نفسه.. ألا توجد وسيلة تجرد الإنسان من هذه القيود الخيالية غير الخوف أو الموت؟ ما أغرب مكاني في هذا القصر؟ ماذا أبتغي فيه؟ ان المساعدات التي أقوم بها لهؤلاء المساكين ما كنت لأقدر عليها لولا مركزي الخاص ونفوذي وقدرة المال، وهذه المؤثرات على الخصوص أريد أن أنساها.. انها تثقل كاهلي لا أريد مركزاً ولا نفوذاً، وإنما أريد أن أساعد كل فرد من خالص نفسي، وأبعث فيه الأمل من أعماق قلبي، أريد أن أكون للجميع على السواء، فالأرواح في أصلها أخوات، لا أريد أن أسمع شيئاً عن الرفيع والوضيع، ولا أعرف أن هناك أرواحاً سعيدة وأخرى شقية. وقد تنقلب الآية فيصبح السعيد شقياً والشقي سعيداً؛ انني أفهمهم جميعاً لأني أحبهم على السواء ولا أعترف بعظمة غير عظمة المساواة. وأنت ألا ترى أن السبل تفترق بنا كثيراً في هذه النقطة.

لا أظن أنني سررت في حياتي لبلوغ أمنية أو تحقيق رغبة بمثل سروري لأمنية اليوم. وذلك لاتصالي بصميم مصدرها ولعلمي بأني لم أنلها بالرجاء وإنما استحققتها بخدمة الإنسانية. فقد ولدت فتاة وجاءني أهلها يسألونني الأذن بتسميتها باسم «جويدان»؛ انني اعتبرهم جميعاً أطفالي حتى ولو لم يحملوا اسمي. فيا جويدان الصغيرة لئن كانت هديتي إليك ليست إلا أمنية ودعاء فانها ان تحققت كما آمل فسترافقك السعادة أينما كنت وحيثما نزلت.

كان أغلب الهاربين من المسلمين. ولكن كان منهم المسيحيون واليهود أيضاً. ولكنني كنت أعمل على إسقاط الفوارق الجنسية والدين حتى لا يظن أحد منهم انه مفضل على غيره، أو أن له حقوقاً أكثر من

الآخرين.. ووزعت ماكينات الخياطة في قسم النساء. فكن يخطن الملابس لأطفالهن ولرجالهن ودبت في الجميع الحياة فأخذوا يتحدثون عن آمالهم وأمانيهم. فمنهم من كان يفكر في الرحيل لأن لهم اتصالاً ببعض الجهات. ومنهم من لم يبق لهم في الحياة غير أنفسهم. وهؤلاء كانوا يرون البقاء مؤقتاً. على انهم جميعاً كانوا يعلمون أن البقاء في رأس التين ليس له زمن يحدده.

أما الخديوي فكان يكثر الاحتكاك بالرجال ويشاطرهم الشعور. فان طبيعته البسيطة المرحة كانت تجذب إليه القلوب وتبعث على الوثوق به. حتى أصبح يعرف قصة كل واحد منهم. ورغم أنه كان يتناسى مركزه الممتاز في حديثه معهم. فإني أعتقد أن كثيراً منهم كان ينسى همومه ويرى نفسه سعيداً لأنه يتحدث مع خديوي مصر. فكان يسرني أن أرى القلوب تحبه.

كنت أنظر من نافذتي في الحديقة. فرأيت الخديوي يسير مع بعض الرجال وهم يدخنون. فخيل إلي أني لأول مرة أعرف أن الخديوي لا يدخن. ولعل السبب في ذلك هو أن الاحترام يمنع الناس من التدخين أمامه حتى ولو سمح لهم بذلك. ولكنه كان حريصاً على توزيع التبغ والسجائر على الهاربين يومياً. فكان هؤلاء يدخنون في حضرته اعترافاً بفضله وجميله. وكان لا يرى غضاضة في ذلك. فكان يمازحهم ويضحك معهم ويسحرهم بحديثه في الحديقة.

عدنا إلى القاهرة - فإننا لا نمكث في الاسكندرية إلا مدة قصيرة أثناء الخريف أو الصيف - مع العلم بأن الفصول الأربعة تكاد تكون لا معنى لها في بلد تشرق فيه الشمس دائماً. أما مقامنا في الشتاء فانه في القاهرة. ولم نسافر إلى سراي المنتزه هذه المرة إلا من أجل الهاربين وقد أصبحوا الآن آمنين يتمتعون بحياة منظمة هادئة بعد أن قدمنا لهم كل ما يمكن من المساعدة الخارجية. أما المساعدة الداخلية فإنها عليهم أنفسهم.

فلعل أمنهم في سراي رأس التين يدخل الطمأنينة على نفوسهم ويمحو منها الألم والخوف.

وقد كتب الخديوي أسماء هؤلاء المنكوبين في كشف طويل وأشار أمام كل منهم بما تتطلبه حاله من المساعدات بعد البحث والتحري كإيجاد عمل له. أو إعادة ترحيله. حسب الحالة. فأصبح مستقبل كثيرين من الأنفس والأرواح معلقاً بهذه الورقة التي تقبض عليها يد الخديوي.

وفي القطار كان الخديوي يأتي إلي كثيراً في صالون الحريم. فكنت أزيح عدداً كبيراً من الكتب لكي أفسح له مكاناً إلى جانبي. وفي المحطات الكبيرة كان الخديوي يقف في نافذة صالونه ويخفف القطار من سرعته لكي يحيي من وقفوا لاستقباله فانهم كانوا جميعاً يفرحون لرؤية أفندينا ولو من نافذة القطار.

وكان الخديوي يعمل مع معيته في القطار فتعرض عليه الأوراق والاسترحامات ويضع البرنامج لليوم التالي في عابدين. فان القاهرة كانت مقر الحكم والعمل والتشريفات الرسمية. ووقعت عيني على الشمس وهي تؤذن بالغروب وقد احمرت سبيكتها. فوددت لو أن القطار ضل غايته. حيث نصبح كلانا أشخاصاً تحركها الرسميات ويتحكم فيها الوسط وتحيط بنا دائرة محدودة لا نستطيع الخروج منها.

وددت لو أن هذا القطار أخذ يصغر ويتناقص حجمه حتى يصبح عربة واحدة ليس فيها إلا أنا وأنت. لا أحد غيرنا. لا شيء سوانا. حتى ماضيَّ وماضيك قبل أن نتعارف لا أريد أن يكون معنا إلا ما أحدثناه نحن بأيدينا.

إلى أين تريد الرحيل؟ ماذا تبتغي هناك؟ وما عسى أن يكون موقفنا الواحد نحو الآخر، إننا لن نكون إلا شخصين لا يجد أحدهما الآخر إلا إذا تلمسه بيده تلمس الأعمى. أو تظن غير ذلك؟

غابت الشمس واختفت أشعتها وسار القطار في الظلام. وإذا بي أسمع صوتك يقول: «فيما تفكرين يا عزيزتي؟ لقد وصلنا».

وصلنا؟!

أرخيت قناعي وخرج الخديوي أولاً من القطار وركب عربته البيضاء إلى سراي القبة يتبعه رجال المعية. ثم غضت الأبصار ونزلت أنا إلى حيث كانت تنتظرني السيارة التي أقلتني إلى سراي مسترد.

سراي مسترد

كلما عدت من السفر ووقفت بي السيارة أمام سلم السراي ينتابني شعور غريب. كأنما ستحدث أشياء مفاجئة. ولا أكاد أستقبل الردهة الكبرى ويقع نظري على ما ألفت من الأشياء حتى أشعر بأنني أصبحت في بيتي وفي منزلي. ولكن شعوري كان يتغير مع كل خطوة أخطوها في الغرف؛ فكان يخيل إلي أن هذه الأشياء تقوم كالعقبة في سبيلي. فأعاني كثيراً من الشدة في إزالتها لكي أستطيع التقدم؛ وما أتقدم إلا لأستسلم لشعور آخر أغالب نفسي فيه وتغالبني. فانني لا أستطيع التنفس في وسط أهملته يد العناية. كما أن نفسي لا تطمئن إلى الحياة في جو خلقته بنفسي وتجمعني به أسباب كثيرة من الحوادث والشعور.

فان تعدد الحوادث والمشاهدات يكون جزءاً من الحياة يجمع ما بين الماضي والمستقبل وله على الحاضر أو لا يمكن محوه أو نسيانه. وأصبحت حياتي أشبه شيء بمسافر كلما قطع جزءاً من طريقه ترك عليه قطعة من نفسه، فهو يلقى نظرة تلو نظرة إلى الوراء ليستعرض أجزاء نفسه المبعثرة على عُرض الطريق الواسع، ويسمع أصواتها تناديه لا لكي يعود إليها ولكن لكي يأخذها معه ويحملها حية من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل إلى حيث يسير.

ليت شعري – كيف يستطيع المرء أن يبدأ حياة جديدة؟ ماذا يصنع

بحياته الماضية؟! أ هو لم يعرف الحياة من قبل؟ هل أشبهت نفسه لوح الصبي يمحو منه ما كتب؟ أم تراه لا يمحو شيئاً. لأن اللوح لم يجر عليه خط ولم تثبت عليه كتابة؟

يظهر أن الحياة لا تكتب حروفها إلا في نفوس نسجت صحائفها من نسيج يمتص الحروف امتصاصاً لا يجعل هناك سبيلاً لمحوها.. ولكن ما عسى أن تكون النتيجة وحروف الحياة لا تنتهي بل تتجدد.. فهل يستطيع الإنسان أن يحفظ كل هذه الحروف ويحملها على صفحات نفسه إلى حيث لا يعلم.

إني في منزلي أطوف في حجراته، فمن ذا الذي يقول ان الأشياء جماد لا حياة فيها؟ ان الأشياء تحفظ تاريخ الحياة وتجيد إعادة القصص. فكم من حلم جميل أستعيد قراءته من بين هذه الوسائد الحريرية؟

كنا جالسين أمام المدفأة، وكنت أنظر إلى نارها المشتعلة ولم يكن ضرورياً أن أنظر إلى وجهها لأنك كنت بأكملك ماثلاً في نفسي.. ثم بدأت الحديث ولكن صوتك كان غريباً على أذني كأنه صوت لا أعرفه. صوت بعيد عن دائرتنا.. وكان هذا الصوت يقص شيئاً عادياً.. رجلاً خان زوجته. ثم وجد نفسه مدفوعاً إلى الاعتراف لزوجته بهذه الخيانة.. فهل يعلم هذا الرجل أن صرحه هدم؟؟ وهل يشعر حقاً بضغط الجريمة على نفسه فيريد أن يخفف عنها بالاعتراف؟ لم يحدث شيء، وظلت النار تشتعل في الموقد. وإذا بيدك تقبض على يدي. وفي هذه اللحظة عدت أنت كما أعرفه، فابتسمت ابتسامة لا علاقة لها بأفكاري. ففي نظرك انتهى الموضوع بانتهاء القصص. وأما في نظري فقد ابتدأ كل شيء الآن. وأنا إذا ابتدأت فلا توجد نهاية.

واستمرت الأشياء تحدثني. وكان ضوء المصباح يسقط على البيانو.

ماذا دهاني؟ هل جننت حتى اني أعذب نفسي باسترجاع أمور أستطيع أن أدفنها في زاوية عميقة، فلا يكشف الغطاء عن حقيقتها؟..

ولكن.. ما قيمة هذه الحياة التي يعمدُ فيها الإنسان إلى أسرار غيره. فيتخذها سلاحاً بعد أن يطليه بالطلاء الذي يهواه؟ ما هذه المهزلة النفسية؟ من هو ذلك العدو الذي أخشاه وأحاول الاختفاء عن نظره؟ ألا يكون ذلك العدو هو نفسي؟

كم من ليلة قضيتها باكية لا لشيء.. إلا لأنني أنكر على نفسي جزءاً منها لا خلاص منه. فكنت أهجر مضجعي وأضغط وجهي الملتهب إلى خشب البيانو الأملس. وأسمع أوتاره تهمس في أذني «حذار»! انك تسيرين في طريق خطأ.. وإن الأمل الذي تسعين إليه لا ينهض به إنسان بمفرده.

لا أريد أن أرى ولا أن أسمع ولا أن أفكر أكثر من ذلك، وليت النسيان يكتنف هذه الليلة.. فتحت الباب المودي إلى غرفة نومي وقع نظري على الخاتم في اصبعي.. انه خاتم من زفير وعليه اسمك.

كيف استطاعت أن تتنكر
لتحضر الحفلات الرسمية

استطعت أن أنفذ إرادتي في السفر لحضور افتتاح قناطر النيل (فحبكت) الطربوش على رأسي جيداً وجربت الانحناءة عدة مرات فلم يقع الطربوش. ولاحظت انه إذا وقع فلا ضرر من ذلك لأن شعري كان مقصوصاً. ولكن الياقة العالية كانت تضايقني كثيراً، وحشوت أكتاف الردنجوت بالقطن حتى لا يظهر اتساعه وملأت (بوز) الجزمة (اللميع) بالورق. ولكثرة عزفي على البيانو كانت أصابعي تشبه أصابع الرجال.

بالاختصار.. كان شكلي يعجب كل سيدة لها ذوق سليم. وهذا الاعتقاد جعلني أشعر بأنني أصبحت رجلاً فعطرت منديلي وحملت حقيبتي الصغيرة المحتوية على ملابسي الرجالي. وذهبت إلى المحطة. وبينما كان الخديوي يحادث الرجال المحيطين به ركبت قطاره المخصوص. وكان طبيعياً في مثل هذه الخطوة الجريئة ألا تتم إلاّ بمساعدة خادمه الخاص (فردريك).

ولما تحرك القطار ورآني الخديوي أمامه لم يصدق عينيه ولم يتمالك نفسه من الدهشة، فانه لم يتوقع أن يرى مثل هذا السكرتير الأمين، وفرح كلانا لهذا الموقف فرحاً شديداً. ولكني كنت أريد التمرن على الوقوف باحترام فكتفت ذراعي. وكلما قال كلمة رقيقة - طبعاً لي أنا وليس للسكرتير - أجبت عليها أولاً بانحناء واحترام. وبعد ذلك أجبت

الإجابة الخاصة. ثم قال لي: «لا يجب أن تتكلمي يا عزيزتي» فوافقت على ذلك. فانه خير لي أن يعتقد الناس أني سكرتير أخرس من أن يظنوا أني أحد الأغوات إذا سمعوا صوتي الرقيق. وقد يذهب الناس إلى أن شدة الاحترام حبست صوتي. فالانحناء يقوم مقام الجواب وهذا يقوي موقفي وموقفه. ولم يعلم بسري إلا طورنسين باشا والدكتور كاوتسكي بك والخادم فريدريك. وذلك لاحتمال الاحتياج إلى مساعداتهم في بعض المواقف.

ووصلنا في الصباح إلى الأقصر. وكانت مزدانة بالأعلام. مزدحمة بالناس. وصدحت الموسيقى من كل مكان وكانت السفن معدة على النيل للخديوي وحاشيته. وسفينة الدوق أوف كنوت. وسفينة للوزراء. وأشرقت علينا الشمس جديدة. وجرت السفينة في ماء النيل. ووقف الفلاحون على الشاطئين يحيون الخديوي وهو واقف على ظهر السفينة. لا تفارق الأنظار عينيه. ووقفت إلى جانبه أنظر إلى النيل. فتحول تحت نظري إلى شجيرات باسقة من القطن وواد أخضر ذي زرع امتلأت سنابله بالحبوب. فعجبت للنيل يجري هادئاً بين ضفتيه الرمليتين. وهو يحمل هذه القوة العظيمة بين موجاته. فحيث جرى يجري الخير في أثره. حتى أصبح روح هذا الوادي.

ورأيت الثيران تدير السواقي برفع الماء وري الأرض لذلك الفلاح الفقير الذي يعيش مع حيوانه في كوخ متهدم من الطين. سقفه من قش الذرة. والنيل يطعم هذا الفقير وذلك الغني على السواء. فالفقير يأخذ منه كوخه. والغني يبني القصور وينفق من خيره الذهب ويتعشق النساء. فلا عجب أن عبده قدماء المصريين.. فكانوا يرون فيه المانع العاطي.

وسارت السفينة نحو السد الذي سيضمن تنظيم الري وتوزيع الغذاء على أرض الشمس الدافئة، واشتد الحر في بدلة الردنجوت. فوددت فك أزراره. ولكن السكرتير يجب أن يقف في صمت أمام سيده. فانني كنت

واقفة إلى جانب خديوي مصر. وحاكم نوبيا والسودان وكردفان ودارفور، ومن أجله نصبت الأعلام والزينات. وإليه تتطلع أنظار الجمهور المزدحم على الشواطئ. وفي أرضه يجري ذلك النيل العظيم. فانحنيت على يده وقبلتها. فنظر إلي نظرة اندهاش أجبته عليها همسا «أفندي مزجوق يشا» ففهم ما أريد. وظن الآخرون أن السكرتير الجديد يشكر مولاه على نعمة أولاه إياها.

ليتني كنت رجلاً يا أفندينا لكي أستطيع خدمتك وخدمة بلادك.

وفي المساء رست البواخر وظهرت الأضواء على الشاطئ. فنزل الخديوي وحاشيته إلى البر حيث سبقته الوزارة إلى السرادق الكبير الذي أقيم للتشريفة. واستقبل الخديوي رجال الدين وكبار الموظفين والباشوات والبكوات والمشايخ. وجلس إليهم يحدثهم. وكانوا يجيبون على أسئلته بأصوات خافتة كأنها آتية من مدى بعيد ولما غادرنا السرادق كانت صفحة النيل قد امتلأت بالقوارب الصغيرة على صفحات الماء الهادئ. ولا يزال أهالي الصعيد متمسكين بخرافة قديمة وهي أنه إذا وجد طفل على ضفاف النيل بالليل أخذه أبوه في سفينة شراعية وصرخ بأعلى صوته في سكون الليل وهدوئه قائلاً: «ولد اليوم طفل فما عسى أن يكون اسمه» ويصل صوته إلى الأغوار القريبة. وقد يكون بعض الناس مستيقظاً في تلك الساعة. فيرد عليه باسم يذكره. ويكون الفضل في تسمية المولود بهذا الاسم راجعاً إلى الليل والنهار وصوت المجهول.

وقد تساءل كثيرون عني. ولكن لم يجرؤ أحد أن يجاهر بسؤاله بالقرب من الخديوي. ورأتني ابنة الدوق أوف كنوت من ظهر المركب فسألت طورنسين باشا عن ذلك التركي الجميل. فأدخل هذا على نفسي الزهو شأن كل رجل يعرف أنه أعجب سيدة من الطبقات العالية. ولم أجد مانعاً من النظر إلى الباخرة الأخرى.. فالسكرتير إنسان على كل حال. والأميرات كن جميلات.

واستقبل الخديوي أحد وزرائه على الباخرة وطال بينهما الحديث وكنت لا أزال واقفة أمام الخديوي واضعة يدي على بطني. وفجأة نظر إلي الخديوي وقال: «ألم يتعب من حب بعد؟» فجمدت في مكاني وأصبت بالعمى والصمم والبكم دفعة واحدة. لأني رأيت الاستنكار الشديد قد ظهر على وجه الوزير. وأصبحت سمعة الخديوي موقوفة على ما يدور على وجهي. ولكني استجمعت كل إرادتي وحكمت نفسي فلم يظهر على وجهي شيء. وعاد الخديوي إلى حديثه وقد بقي السؤال بغير جواب. كأنما وجه إلى الفضاء. ومازلت آمل في أن يكون الوزير ثقيل السمع.

وفي ٨ فبراير سنة ١٩٠٩ وضع الخديوي الحجر الختامي في بناء سد النيل. وكان قد مضى عليه ثمانية عشر عاماً في الحكم. ولم يكن بين الخلائق المجتمعة وجه ظهر عليه الحب والإخلاص للنيل وواديه مثل وجه الخديوي. فانه لم يكن في موقفه الخديوي الحاكم. وإنما كان فلاحاً يحب الأرض ويجيد العناية بها. حتى أصبح من أشهر مزارعي القطر المصري. وتنتج أرضه أحسن المحاصيل. وكثيراً ما كان يشتري أرضاً يظنها الناس جرداء لا خير فيها. فلا تمضي سنوات قليلة حتى تصبح هذه الأرض القاحلة أرضاً طيبة تنبت الفاكهة والزرع. فكان الخديوي أكثر الموجودين اتصالاً بذلك السد الذي جاء لافتتاحه. والذي نقش عليه اسم الخديوي من ذهب.

لماذا تنكرت بملابس ممرضة؟

وكيف كان الخديوي السابق يقود يخت «المحروسة» بنفسه؟

وصل إلي تلغراف جفري من الخديوي يطلب إلي فيه أن أعود إلى القاهرة متنكرة. فجلست أفكر. وبعد أن دخنت السيجارة العاشرة كنت قد انتهيت من وضع الخطة - وليس هناك شيء أعجز عن تنفيذه - وبعد ساعة كنت عند البارونة «آيور» رئيسة جمعية الصليب الأحمر.

ورجوتها أن تعطيني جوازاً كممرضة من ممرضات الصليب الأحمر. وأن تسمح لممرضة حقيقية أن تصحبني في رحلتي.

وبالرغم من دهشة البارونة لطلبي هذا شعرت أن هناك جواً من التفاهم يسود بيني وبينها، والعقل والتفكير يتغلبان على أعقد الأمور التي قد تبدو مستحيلة لأول وهلة. ثم كلمنا الأستاذ «فرشق» ورجوناه في أن يحضر إلينا. ثم جلسنا ثلاثتنا نتشاور ونتبادل الآراء. ولما عدت إلى الفندق كانت الخياطة تعد لي ملابس ممرضة.

واشترت الرئيسة تذكرتي السفر. كما انها حجزت مكاني في الباخرة واستطاعت هي والأستاذ أن يحصلا لي على جواز سفر باسم «الأخت صوفيا» ولكن ملابس الممرضات كانت متعبة جداً فالقماش الخشن كان يحك جلدي فيؤلمني. وفضلاً عن ذلك لابد أن ألبس شعراً مستعاراً لأن الممرضات لا يتبعن «الموضة» في قص الشعر. ولما كنت غير متعودة على الشعر الطويل فاني كنت أجهل آداب استعمال «الباروكة» والضفيرة المستعارة.

وأعدت خادمتي «هارملين» حوائجي من أحذية بلا كعب، وملابس من (الدبلان) وشرابات قطنية، فلم أطق النظر إلى هذه (التشكيلة) المخيفة.. ثم نشبت بيني وبينها معركة شديدة من أجل الكولونيا والروائح العطرية. وملابس النوم الحريرية.. وانتهت المعركة بانتصار باهر لي. فأخذت هذه الأشياء معي، بعد أن وعدت وعداً مؤكداً بأن أستعمل الحيطة والحذر في فتح حقيبتي، ثم أرسل تلغراف جفري إلى الخديوي بيوم الوصول، واني لأحسد خادمتي على سفرها بحقائبي الكثيرة المملوة بالملابس النفيسة، بينما أسافر أنا كممرضة فقيرة «غلبانة».

وقالت لي الرئيسة. لا ترفعي رأسك يا صاحبة السمو. واخفضي من جناحك قليلاً. فلما فعلت قالت: هذا حسن. لقد أصبحت الآن أختاً صالحة. ثم قدمت لي رفيقتي في السفر.

لم يكن يعلم بتنقلي أحد غير الرئيسة والأستاذ والأخت الزميلة. حتى الخياطة كانت تظن أن الملابس لممرضة حقيقية. ثم حملت كل منا حقيبتها بيدها وذهبنا إلى المحطة. ومعنا الأم الرئيسة واتخذنا مقاعدنا في الدرجة الثانية. ولما آذن القطار بالرحيل همست الرئيسة في أذني بأنه لا مناص من أن أنحني على يدها فأقبلها - وان كان يؤلمها ذلك - أو على الأقل أتظاهر بأني أقبلها لكي لا ألفت الأنظار. على انه في الواقع لم يكن يؤلمني أن أقبل يد تلك الأم الصالحة، فان تكن أختي قد قبلتها عن خضوع وذلة. فقد قبلتها أنا عن احترام وإكبار، ثم تحرك القطار يقل أختين ممرضتين إلى كويستا، ومنها إلى الاسكندرية لتقوما بتمريض سيدة محسنة عجوز.

وفي عربة القطار بدأت (المصيبة) فاني - بكل بساطة - وبدافع العادة أخرجت علبة السجاير فنظرتْ إلي أختي بذعر وظهرت عليها دلائل الاغماء ونظرت إلى السيجارة كما لو كانت قبلج وتوسلت إلي ألا أدخن. ولم يكن هناك أثقل على نفسي من إجابة هذا النداء - واتباع العقل قد يكون ثقيلاً في بعض الأحيان - ثم تنبهت فجأة إلى أننا لم نحجز مكاناً في عربة النوم. ولكن الأخت (هلدجارد) أفهمتني أن هذا لا يتفق مع تعاليم الممرضات، فلا يسمح لهن بالسفر في عربات النوم إلا إذا كان معهن مريض. فنمت ليلتي في مكاني. وكان رأسي إذا مال اختل نظام وضع الضفيرة المستعارة ومالت «الباروكة» وأصبح منظري مضحكاً - الله!! - متى تنتهي هذه الليلة؟

وفي صباح اليوم التالي وصلنا إلى تريستا، فأردت أن أبرهن لزميلتي على أنني أحسن الرحيل فأخذتها إلى أحسن فندق في المدينة، وانتقيت أحسن الغرف فأثرت بذلك الشكوك حول شخصنا ووظيفتنا، وبعد الحمام طلبت إفطاراً فاخراً. وأقبلت على السجاير بشهية عظيمة، لأعوض ما فاتني منها في القطار، وكان الجرسون الذي يقوم على خدمتنا يبتسم لنا ابتسامة غريبة وقحة. ولكني لم أكن أعبأ بذلك.

وفي الباخرة خصصت لنا كابينة بسريرين في الدرجة الثانية - الحمد لله - أخيراً أصبحنا بمفردنا.

كانت الرحلة جميلة. وكان طبيب الباخرة يجلس معنا في الأكل. وسألنا عن وجهة سفرنا. فتركت الإجابة لأختي «المتمرنة» لأن صوتها كان عديم اللهجة خافتاً تشتم منه رائحة المستشفيات. وجلست إلى جانبي سيدة قصت علي تاريخ زواجها المحزن. واختتمت قصتها قائلة (أنت تفهمين أيتها الأخت).

نعم، ان هذه الأخت تفهم كل شيء ولكن لا يعنيها سماع هذه التفاصيل التي تخص طبيب النساء دون غيره.

كنت أطيل المكث في «الكابينة» بقدر المستطاع إذ كنت أستطيع التمتع بلذة التدخين وأتخلص من الشعر المستعار.

ما أسمج هذا الشعر الغريب الجامد - كأنما الشعر القصير طعن في كفاءة الممرضة - وكنت آخذ الحمام كل صباح فأسر جداً لوجود ماء الكولونيا معي.

وفي برنديزي وقف كل الركاب على ظهر الباخرة للتفتيش على الجوازات. فاضطربت الأخت هلدجارد. فوقف كل منا يحمل جوازه بيده. وقد تلطف الناس معنا بنوع خاص، لأننا ممرضات نخدم الإنسانية. ثم أعلن أن الجوازات صحيحة. وكان هذا هو كل ما رأيناه من الحرب التركية البلغارية.

وفي الليل سمعنا طرقاً على بابنا. فقد مرض أحد الركاب ويحتاج إلى تمريض، ولما كان هذا ليس من اختصاصي فقد قامت الأخت هلدجارد لتأدية وظيفتها، أما أنا فاني أدرت نفسي على الجانب الآخر لأستمر في النوم. وقبل أن أنام رأيت الضفيرة المستعارة تهتز في مكانها المعلقة فيه كأنها الثعبان.

وفي اليوم التالي كان الخديوي موضوع الحديث على مائدة الغداء.

وكان الحديث في مبدئه عاماً، ثم أخذ يتدرج من الكلام عن الخديوي الحاكم إلى الكلام عن الخديوي الرجل، فظهر الانتباه على وجهي لدرجة أن الأخت هلدجارد كاد يغمى عليها خوف الافتضاح. فأخذت تغمزني بحذائها الثقيل من تحت الطاولة. وكان الطبيب ضد الخديوي. فاحمر وجهي واضطربت عيناي، ولكني تمالكت نفسي وسكت.

وقص الطبيب أن الخديوي سافر مرة إلى القسطنطينية على باخرة رومانية. وكان الجو عاصفاً والبحر رديئاً. فجزع الخديوي وخاف خوفاً شديداً. فكانوا يهدئونه بين آونة وأخرى.

يا للكذب.....!!

أما العاصفة فانها حقيقية. وقد كنت معه في هذه الرحلة. ولكني لم أر شيئاً من ذلك الخوف الذي يتحدث عنه الكذاب.

لقد كان الخديوي أكثر مراناً على البحر من أحسن قبطان. وكم من عاصفة اجتازها بيخته (المحروسة). وقد تولى القيادة بنفسه. وظل طوال الليل ساهراً يعطي الأوامر لرجاله وسط ضباب كثيف. وموج كالجبال، وكان الخديوي إذا عب عباب البحر واصطخب موجه لا يفكر في نفسه ولا في حياته، وإنما يفكر في المسؤولية التي يحملها عن الآخرين الذين يقومون بخدمته.

بعد ذلك يأتي هذا الرجل ويخترع عليه الأقاصيص!! فكنت أحدث نفسي قائلة:

- انتظر... سوف أرد لك كل هذا بمكيال أوفى، سوف ألقي عليك درساً لن تنساه، سوف أجعلك تكره طول حياتك قصص العواصف والأمواج، سوف أجعلك تذكر الممرضات ذكراً لا يعتريه النسيان. ثم أعقبت هذا - في سري طبعاً - ببعض الشتائم العربية، لأن اللغة العربية واسعة المحصول في هذا الباب.

***

ساءت حالة المريض الذي تمرضه هلدجارد، ولم يعد ينقصنا إلا الحجز في الكورنتينة لكي تتم المسرات، وكانت زميلتي على دراية بالحالات العصبية، فكانت تكثر من تدليك جسمي بماء الكولونيا - الذي كسبته في موقعة الفندق في فينا - لأنها كانت تخشى أن يعرف أمري ونحن على ظهر الباخرة.

الحمد لله، تحسنت صحة المريض ووصلنا إلى الاسكندرية، وكان أول من غادر الباخرة ممرضتان من ممرضات الصليب الأحمر، ثم اقلتنا العربة بسرعة إلى مكان الحلاق «واشزرو» فسألتني زوجته: ماذا تريدين أيتها الأخت؟ ولكن صوتي جعلها تتذكر أن لها عينين تؤديان وظيفة النظر - فذهبنا إلى مسكنها وأحضرت الملابس اللازمة؛ وبعد ساعة كان اكسبريس القاهرة يقل سيدتين تركيتين يغطي وجهيهما قناع أسود - وانتهى عهد التمريض والممرضات. وما أسرع تحول النساء من حالة إلى حالة. فقد اختفت امارات الاستكانة من وجه زميلتي وعادت سيدة مهذبة لها دراية بالعادات والآداب وكانت دائماً تعقب كل كلمة من كلماتها بكلمة: «يا صاحبة السمو».

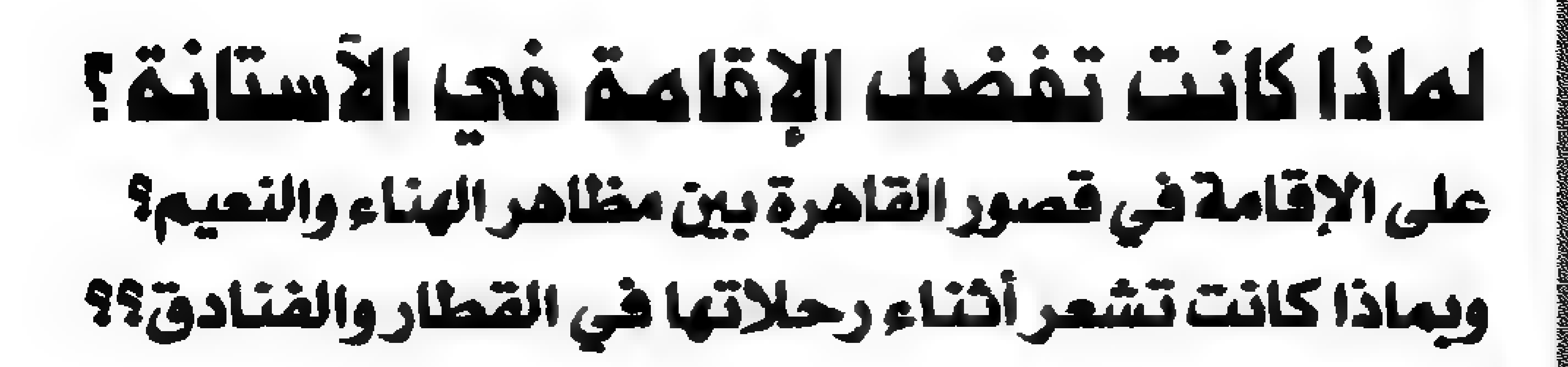
ولما وصلنا إلى القاهرة أمرت «العربجي» بأن يذهب إلى سراي عابدين فأطاع دَهِشاً. ولما أكد أصل حتى أسرعت في مماشي القصر يهرول أمامي الخادم لينيه «الخادم الخاص فريدريك» إلى حضوري. ولم يكد هذا يراني حتى أسرع لإخبار الخديوي الذي جاء مسرعاً للقائي. وحولت الأخت عينها عنا.

وكان الخديوي قد طلب قائمة بأسعار جميع ركاب الباخرة. ولكنه لم يستطع أن يتبين الاسم أو الشكل الذي تنكرت به. وبالرغم من ذلك أرسل الدكتور كاوتسكي بك لانتظار الباخرة التي حضرت عليها فلم يعرفني. وهذا دليل على أنَّ تنكري كان بالغاً حد الاتقان.

وبالطبع أخبرت الخديوي بخبر الطبيب. فتوجه طورنسين باشا إلى

إدارة شركة اللويد النمسوية، وانكر الطبيب أولاً وقوع ذلك منه. فانه كان يعرف كل جلسائه على المائدة - لكنه نسي الممرضات ولما أخبر بأن هناك ممرضة على استعداد لمواجهته أدرك الحقيقة؛ وبلغني أنه كان يشك فعلاً في شخصيتي لكثرة الحمامات التي كنت آخذها ولرائحة الكولونيا التي كنت اتركها في الحمام.

أما الممرضة الحقيقية فانها بعد أن أمضت عدة أسابيع في ضيافتي في قصر مسترد عزمت على الرحيل وجاءت تودعني في لباس الممرضات فسرني جداً أن أرى هذا اللباس الخشن على جسدها هي، وليس على جسدي أنا.



لماذا كانت تفضل الإقامة في الآستانة ؟
على الإقامة في قصور القاهرة بين مظاهر الهناء والنعيم؟
وبماذا كانت تشعر أثناء رحلاتها في القطار والفنادق؟؟

القسطنطينية في شهر رمضان

سنمضي صيف هذا العام بأكمله في الآستانة بعد أن قررنا عدم القيام بالرحلة الأوربية السنوية، ولم يسئني هذا القرار لأني أحب الآستانة حباً جماً. وأشعر بأني مرتبطة بهذا العمل برباط نفساني شديد.

كنا بالآستانة بعيدين عن رسميات القصور في مصر، وإذا استقبل الخديوي أحداً هنا فان هذا الاستقبال يكون خالياً من الصيغة الرسمية. بحيث يمكن اعتباره زيارة عادية بسيطة.

هنا كنت أشعر حقاً بأنني متزوجة. وما أجمل هذا الشعور أحياناً!! فانه يكسب الأحلام لوناً جميلا ثابتاً.

هنا كان يملكني اليقين بأنك زوجي واني زوجتك. وأعتقد أننا في هذا الجو. كنا نتبدل أناسا آخرين. حتى في شعورنا الواحد قبل الآخر.

وأعتقد أن حياتي كانت تتقلب بين أطوار ثلاثة مختلفة. واحد منها في القاهرة. مقر الحكم. والثاني أثناء الرحلات. والثالث في الآستانة.

أما في القاهرة فلم أكن أر فيك إلا الخديوي فقط. حتى أثناء زيارتك لي في سراي مسترد. كنت لا أستطيع أن أنظر إليك نظرتي إلى شيء خاص بي. ويكفي أن أرى العربة التي تنتظرك في الحديقة لأعلم أن

زيارتك عرضية محدودة. وليس أدل على هذا من أنه توجد في سراي مسترد غرف لا نعرفها ولن تطأها قدماك.

كانت سراي مسترد ملكاً لأحد الأغوات. فلما مات عادت إلى الأملاك الخديوية ولم يسكنها أحد قبلي. فلما خصصت لسكني أدخلت تغييراً كبيراً على بنيانها وأثاثها وتركيبها. وكونتها تكويناً جديداً يتفق مع ذوقي الخاص. فان تكن هذه السراي قد أصبحت بيتي. فانها لم تكن يوماً من الأيام بيتا لنا.

وأما في الرحلات - مهما طالت مدتها - فاننا كنا نلتقي قليلاً ولمدة قصيرة. إذ كنا دائماً نعيش في مكانين منعزلين - وان كانا متقاربين - سواء في الباخرة أو في القطار أو في الفندق.

أما في القسطنطينية فحياتنا تختلف عن كل ما سبق. فقد قامت سراي شويكلي تحت أعيننا وعنايتنا معاً منذ كانت رسماً على الورق. فدرسنا تفاصيلها قبل أن يقوم بنيانها. واشترينا بأيدينا كل ما يلزم لها من أقمشة وأثاث. كذلك الأشجار والورود والمزروعات كلها غرست وفقاً لإرادتنا ومهدت الطرق حسب ما ارتأيناه. فالسراي كلها قامت حسب رغباتنا. ومن أجلنا. لا من أجلك وحدك ولا من أجلي وحدي. وكذلك الحال في كشك «تشقتليك» حيث تمضي رمضان هذا العام. وقد أمرت أنت بعمل الطريق الذي يصلُ ما بين شويكلي وتشقتليك ورأيناه بأعيننا يمهد حتى تم.

إذن فبيتنا الحقيقي «بيت كلينا» لا يوجد إلا في الآستانة.

قل أين نتناول الطعام اليوم؟ أفي شويكلي على شاطئ البحر في «سلاملك» الحديقة أم في السراي في الشرفة الكبيرة؟

بدأت الأنوار تضيء واحداً بعد آخر. فكانت كأعين تنشر ضياءها على صفحة البسفور. وأخذت السفن تراقص أمواجه تحت ضوء القمر.

ما أكثر ما سألتني «فيم تفكرين؟» ليتني أستطيع أن أقول إن

ذلك ليس تفكيراً. ولا اتصال له بالواقع. وانما هو شعور يرفرف بجناحيه ويطير في واد متسع ليس له حدود ولا يعرف من مخبوئه إلا شعاع أو خيال. أو في محاولة لإخفاء حوادث تعاقبت عليها الأيام حتى كادت تفقد لون الحقيقة. ولم يعد يذكرها أحد إلا كإشاعة لا تبرزها على حقيقتها. ولكن كلون باهت وصدى ضعيف لنغمة قديمة. متى تحين الساعة التي أرى فيها حقيقة اليوم تمتد أمام بصري كواد ذي زرع نضج ثمره حتى لا يخيل إلي أن هذه الحقيقة بجملتها أصبحت ملكاً للماضي.

«ما أغربك!!..» طالما سمعت منك هذه الجملة أيضاً.

إني لأكتب الآن في كشك تشقتليك. ثم أرسل بصري من بين أشجار العنب إلى الطريق الذي ستأتي منه سيارتك - وكل مرة أرى فيها تلك السيارة تقطع الطريق إلى القصر يخالجني شك في أن هذه السيارة آتيةٌ إلي وأنها ستقف أمام الكشك الذي أنتظر فيه - فاضطر أمام هذا إلى تذكرة نفسي بأنك أنت الجالس في هذه السيارة - ومن الغريب أن نفسي ترى في كل شيء أمراً عجباً!! حتى ولو كان من أبسط الحوادث - وقد تقع أمور يمر عليها غيري مر الكرام. بل قد لا يحسون بها. أما أنا فاني أرى فيها سراً خفياً. فأوغل في الحدس والتخمين. غير واجدة أساساً ثابتاً ارتكز عليه.

وأغلب ظني أن كثرة البحث والتفكير هي التي ولدت في نفسي حب الاستقصاء. فغيري لا يُعنون بالبحث؛ ومنهم من عميت بصائرهم فتوهموا أنهم قد وقفوا على الحقائق!!

الله!!.. ما هذا الجوع الذي أشعر به؟

حقاً!! إنه رمضان!! وهأنذا أسمع الحراس يتهامسون مع بعضهم بعضاً ويقولون إنه باق نصف ساعة.

ومعنى هذا أن الشمس ستغرب بعد نصف ساعة - أي أن المعدة

ستسكن بعد هذا الوقت أيضاً - فوضعت إذ ذاك إلى جانبي سيجارة كبيرة. فانها ستكون أول ما أبدأ به.

ها هي السيارة تسرع في طريق القصر. وفي هذه المرة أجد نفسي واثقة من أنك فيها. ولست أدري لماذا يخفق قلبي بهذه الشدة؟ أمن الفرح؟ أم من الجوع؟

ثم أبدأ اليوم بالسيجارة لأن السائق كان أسرع من المعتاد والأكل في رمضان يختلف في سائر الأيام - فتعدد الألوان وكثرة الأواني الصغيرة وفكرة أن الأكل الآن لا لأن الإنسان جائع فقط. بل لأن الأكل غير مسموح به إلا إلى مطلع الفجر - كل هذه الأشياء غير مألوفة في الأيام العادية. فالإنسان ينام في رمضان بسرعة ويظل نائماً حتى موعد الطعام.

جلست إلى مائدة صغيرة لنتناول السحور على ضوء الشموع. ثم شربت كأساً من الماء وتلوته بسيجارة. ثم أمسكنا لنستقبل صيام يوم جديد.

لماذا حاول السلطان عبد الحميد
منع زوجة الخديوي السابق من السفر إلى أوروبا؟
وكيف كانت زوجة الخديوي تقضي شهر رمضان؟؟

جاء اليوم الثاني من رمضان بزيارة غير متوقعة.

وعادة يحاول الإنسان في رمضان قتل الوقت لكي يمر سراعاً لا لأنه يشعر بالجوع. فان تحديد مواعيد الأكل لا تأخيرها عن مواعيدها كفيل بذلك. ولكن لأن النوم وحده لا يشبع البطون - ثم ان كثرة المحظورات. واشتغال الفكر. بأن هذا محرم وهذا ممنوع. يجعل الإنسان يحس بفراغ ويشعر بقوة هذه المحرمات - فالممنوع متبوع.

كانت الأثاثات في الردهة والصالون مغطاة بأغطية حريرية تسيل ألوانها كالماء - أظن أنني ظمأى ولا أريد الاعتراف بذلك. وما هي فائدة اعترافي بالحقيقة. واقراري بالظمأ. ما دامت الشمس لا تزال في كبد السماء؟ وكنت دائماً أحدث تغييراً في الأغطية وتبديلاً في الوسائد لكي أقتل نهار الصيام الطويل. وأثناء جلوسي بين الأقمشة والوسائد الجديدة سمعت صوتاً ينادي بلهفة.

هانم أفندي.. هانم أفندي.

لابد أن يكون هناك أمر مهم. وإلا لما اجترأ هذا الصوت على الارتفاع في سكون الحريم - وفعلاً كان هناك أمر مهم - فقد وقف الخديوي يتحدث مع أمير تركي في الحديقة ويريه تنسيقها. ففهمت أن الخديوي إنما أراد بذلك أن يمنحنا الوقت الكافي للانسحاب. فحملنا الأقمشة والوسائد وأسرعنا إلى الدور الثاني. ولما دخل الخديوي وضيفه إلى الصالون لم يكن فيه أثر - ولو بسيط - يدل على أنه كانت هناك نساء في الصالون منذ لحظة.

وكان الأمير قد خرج في نزهة مع الخديوي. وفجأة أبدى رغبته في زيارة الكشك غير عارف بأن الحريم يسكُنَّ في الكشك أيضاً – فقد كان يظن أن الحريم موجود في سراي شيكلي. ولم يجد الخديوي بدا من إجابة رغبة الأمير فان العادة كانت تحرم ذكر الحريم في الحديث. فيتخطاه الإنسان بالسكوت. فليت شعري لم هذا؟ ألأن قيمتنا ثمينة أم لأنه ليست لنا قيمة؟؟

وشعر السلطان عبد الحميد – بصفته ظل الله على الأرض – بأنه مكلف بأن يفهم الخديوي بأن سفري معه إلى أوروبا أمر لا يليق إطلاقاً فأخذ الباديشاه يتكلم – على وجه العموم – بأنه لا يليق بالمرأة المسلمة أن تتبع العادات الافرنجية. ويستحسن ألا تسافر المرأة المسلمة إلى أوروبا. وغير ذلك من التعاليم الغالية.

وظن السلطان أن الخديوي يستمع إلى نصائحه. ولكنه نسي أن لي كلمة في الموضوع أيضاً. وعندما قص الخديوي عليَّ هذا الحديث ذا المعاني الكثيرة. وكنت أقلب الملابس التي وردت لي من باريس خصيصاً للرحلة، فأعجبت بها إعجاباً شديداً هذه المرة على الخصوص.

ما للسلطان ومالي؟ لِمَ يتعرضُ لحياتي ورحلاتي وأعمالي؟ ما شأنه في هذا؟ لن أفكر لحظة واحدة في التنازل، وما كان ألطف جوابك لي: (افعلي ما تريدين يا عزيزتي).

ثم جاء يوم الرحيل، وكان مقرراً أن الخديوي بعد أن يستقبل زائريه الرسميين يذهب مع حاشيته إلى محطة (جالاطة) لركوب قطار الشرق السريع، وقبل موعد السفر بساعتين غادرت شويكلي في زورق بخاري، ولم يكد الزورق يتحرك حتى ظهرت سفينة ترقبنا عن بعد – جواسيس يلدز يثبتون وجودهم – ولكن علم الخديوي الذي كان يخفق على الزورق جعلهم لا حول لهم ولا قوة، ثم أسدلت الستائر في الغرفة الداخلية ونزعت الملابس الهوانم التي خرجت بها من شويكلي.

ولما وصل الزورق إلى محطة «جالاطة» خرجت منه سيدة أوروبية ترتدي أحدث الأزياء الباريسية، أسرعت إلى القطار فاستقبلني الكلب «بوللي» بفرح شديد وهو يثب حولي، ولكنه دهش للقبعة التي لم يألف رؤيتها فأخذ «يشمشم» فيها مستغرباً!!

ما أجمل أن تكون المرأة زوجة لخديوي مصر!! وبخاصة عندما يقول: «افعلي ما تريدين يا عزيزتي».

يبدو النهار في رمضان طويلاً جداً، وذلك لأنه ينقصه ما اعتاده الإنسان في فترات الطعام والتدخين والتلهي. ويوم رمضان له لون خاص نظراً لنزول الإنسان فيه عن عادته التي اعتادها طول حياته. فاليوم الاعتيادي ليس إلا وقتاً مقسماً بين هذا وذاك، ولكن يوم رمضان يوم مستقل ووحدة ثابتة تأخذ مجراها من مطلع الشمس إلى مغربها، والإنسان عادة يحكم على وقته ويتصرف فيه فيقسمه حسب سبل معيشته، أما يوم رمضان فانه يحكم نفسه بنفسه، ولست أرى لنفسي مكاناً فيه، وليس لي إلا أن أنظر إليه وأتبع مجراها حتى تغيب الشمس، وعندها فقط تستطيع عاداتي أن تطالب بحياتها، ولكنها حياة تبدو كذكرى أكثر منها حياة، فان الأشياء التي اعتاد الإنسان أن يفعلها نهاراً تحت أشعة الشمس تفقد رواءها في الظلام، فمثلاً القهوة باللبن إذا شربت مساء فانها – رغم لذة طعمها – تنقصها بهجة الصباح، وكذلك الأحلام التي يحملها الإنسان بعد غذاء منتصف الليل تكون خالية من الرقة – فانها أكثر من أن تكون حلماً – وكل هذه الأشياء تحدث «ضيقاً» في المزاج. فليس غريباً أن يكثر الطلاق في رمضان عند من لا يضبطون أنفسهم، فان الجوع والعطش وعدم التدخين تجعل الواحد منهم سريع الغضب، قليل الصبر. عديم التفكير. وكل هذا يقع على رأس المرأة المسكينة التي لا تستطيع أن تساعده بشيء في هذا الموقف.

أما أنا فكنت أرى في رمضان مجهراً أرى به الناس على حقيقتهم، لا تخفيهم العادات وملابسات الوقت، فهذه الايضاحات الداخلية لا شأن لها بالفوارق الظاهرية، وكلما أمعنت فيها النظر ازددت يقيناً بوحدة الفرد.

ماذا يريد رمضان مني؟ هل يريد أن ينبهني؟ هل يريد أن يثبت لي – بالجوع – أن تصميم حياتي ينقصه الأساس؟ واني لشدة تعلقي بالأمل يخيل إلي أحياناً أن آمالي قد تحققت، وهي لم تغادر بعد قرارة نفسي!! وهل أصبح اليوم الممل والمعدة الخالية عاملين قويين يستطيعان رفع الغشاوة عن العين فتصبح مبصرة؟ أغلب ظني أن رمضان هذا سيسلبني عقلي!!

أيام الصيف طويلة تصبح الشمس فيها عداداً للساعات ليس إلا، وبين الفترة والفترة يطالب «كيف» الدخان بحقوقه ويضغط على العصب المتأثر بالتدخين فأسمع له في رأسي صوتا أَحَدَّ من صوت الطيور.

ليس في نفسي استعداد للتجرد، ولا أصلح لأن أكون من المتصوفات، وأشعر جيداً أن حالتي بائسة، مع أنني كنت في غنى عن كل هذا، ومن حسن حظي ينظر من وراء كتفي فيقرأ ما أكتب، ولو أن أحد الجنود الواقفين أمام الكشك اطلع على ما أكتبه لاحتقرني بكل تأكيد، ولكنه - والحمد لله - في الخارج وأنا في الداخل. فهل يعلم عني شيئاً؟ وإذا رأى طرف غطاء رأسي وقف «زنهار» وأدى التحية.

يا لله!! ما أخون هذه الحياة.

وليس مزاج الخديوي اليوم على ما يرام، فقد عنف (المكوجية) لأنهم يبطئون في الكي، وآمل ألا يكون قد طرد (المكوجي) الذي يجيد كي (البلاسيه) ولست أدري كيف يستطيع خديوي أن يهتم بالغسيل؟ وعادة إذا احتجنا إلى شيء أخبرناه به فيحدد هو بنفسه الوقت والسيارة والسائق لإحضار هذا الشيء.

إنه لمن السخف أن تمر كل صغيرة على الخديوي، حتى إننا في بعض الأحايين نخشى أن نخبره بتأخر بعض الطلبات خوفاً من أن يغضب على المكلفين بأدائها فيخصم من مرتباتهم أو يطردهم، ولست أدري كيف يتسع وقته وفكره للاشتغال بهذه الأشياء حتى أصبح خدمه غير قادرين على العمل برأي مستقل. وهذه الظاهرة قوية في نفسه ولا يمكن تحويله عنها، فقد استخدمت مديرة للمنزل في سراي شويلكي، ولكني لم أبلغ بهذا أكثر من أنني أضفت إنساناً جديداً إلى من يسألونه الرأي. ولكن لا عجب في ذلك فالسلطان عبد الحميد نفسه يهتم في سرايه بكل شيء، حتى الغسيل القديم يحظى باهتمام الخليفة والأواني التي يشرب منها يختمها نفسه بخاتمه.

كيف نشأ العداء
بين الخديوي واللورد كرومر؟

جلس الخديوي على العرش وهو في الثامنة عشرة من عمره، ولم تكن الظروف حسنة، فقد خلف أباه توفيق باشا، وكان حاكماً ضعيفاً، من بعده جده اسماعيل باشا، وكان حاكماً صرفاً كبير المطامع.

ولما تولى العرش لم يجد في بداية حكمه تعضيداً كافياً، فان اللورد كرومر لم يكلف نفسه عناء الاتصال بنفسية ذلك الخديوي الصغير، فان السياسة الحجرية لا تعرف معنى العواطف والشعور. فكان اللورد كرومر لا ينظر إلى الخديوي إلا كرئيس عنيد الرأي، وربيب له غير محبوب منه. لأنه كان مضطراً لمخاطبته بلقب «يا صاحب السمو» وهو يعلم أن الخديوي ليس له من الأمر إلا هذا اللقب. على حين أنه كان يشعر بأنه هو الحاكم الحقيقي وكان هذا كافيا لأن ينظر اللورد إلى الخديوي كدمية يجب عليها الطاعة. ولكن الطاعة كانت غريبة على خلق الخديوي منذ الصغر، وكان قوي العزم عنيد الرأي. وفوق ذلك كان محبا للكفاح، ولعل هذا الخلق تولد في نفسه عندما شعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه والتي كان في إمكانه الاضطلاع بها دون أن يضطر إلى الوقوف موقف الدفاع أمام هذا العدو القوي الذي كان في إمكانه أن يذله كحاكم وإنسان.

وليس من المعقول أن خديوياً – ولو كان نصف وطني فقط – يتقبل

صداقة ديكتاتور أرغم على قبوله من قوة معادية، وكل نظرة إليه تذكره بضعف بلاده وهزيمة أسلافه. فكان أصعب وقت مر على الخديوي هو الوقت الذي امتد فيه ظل كرومر في مصر، فانه كان يعامل الخديوي باعتبار أنه في الثامنة عشرة غير عابئ بحدته ولا باحتجاجه.

ولما حضر السير الدون غورست تنفس الخديوي فقد كان - غورست - رجلاً ليناً لطيفاً على الرغم من السياسة. ولو أن غورست كان في مصر عندما جلس عباس الثاني على العرش لكان ذلك أصلح لتطور الخديوي، فاني أتهم اللورد كرومر بأنه السبب في بعض خبث الخديوي.

كان غورست هو الشخص الوحيد الذي أخلص له الخديوي في الود وتعلق به تعلقاً شديداً مقروناً - كحاكم وكرجل - وعندما كنا في لندن وبلغ الخديوي أن المرض اشتد على السير غورست وهو في بيته الريفي، أسرع إلى عيادته في الحال، ولما عاد كان في حالة حزن شديدة لم أعهدها عليه من قبل، ثم قال «لقد تحدثنا ... ثم صلينا ..» فكان للجميع في الصلاة معنى سام، فقد تجلت فيها الرابطة الإنسانية بين الرجلين. تلك الرابطة التي ألفت بين المسلم والمسيحي، بين السياسي الإنجليزي والحاكم المصري، فجعلته ينسى كل شيء ويشترك مع صديقه في صلاته وهو على سرير الموت.

كان الخديوي يحب بلاده حباً أكيداً، ويتعلق بأرض مصر تعلقاً شديداً، فكان يرعى أرضه بصبر وجلد، وهي تنمو عاماً بعد عام تحت إشرافه الشخصي، فقد كان من دأبه ألا يعتمد على أقوال غيره ولا يصدق إلا ما تراه عيناه، وليس قصر المنتزه إلا نتيجة مجهودات سنين متتالية أحالت أرض البحر الرملية إلى حدائق غناء تنبت الزهر والفاكهة. وتغلب الخديوي على كل الصعوبات القائمة وأنشأ للقصر مرفأ جميلاً عميقاً له رصيف من الحجر الصلد، وكثيراً ما كنا نركب العربة الصغيرة

للنزهة في حديقة القصر وعلى شاطئ البحر فتستقبلنا الزهور بأريجها الطيب وألوانها الزاهية، فان الطبيعة أسرفت هنا في جمال الألوان وطيب الأريج، فإنما اتفق البر والبحر على أن يكوّنا فناً من الجمال.

وكانت آثار الخديوي تظهر على كل ما تتعهده يده، سواء في القصور أو التفاتيش أو المزارع. فتفتيش ادفينا وتفتيش الاسماعيلية، كلها كانت أراضي جرداء فأصبحت مثمرة تدر الخير عليه وعلى الفلاحين القاطنين في تلك النواحي.

وكان الخديوي يزهو بنمو ثروته، وقد أخذ عليه بعضهم أنه يستغل مركزه لمصلحته الخاصة وأنه كان تاجراً، على أن الخديوي لم يكنز ثروته في الصناديق، ولم يودعها البنوك كشأن أمراء الشرق بل كان ينزل بثروته إلى السوق فتستفيد من ورائه أنفس كثيرة.

ومن المدهش أن ما يحتسب لسائر التجار كحسنات يحتسب للخديوي كسيئات، والواقع أن الخديوي كان تاجراً أكثر من التجار، يزن الأشياء بمقدار ما تدره من الأرباح، فكانت ميناء المنتزه مؤجرة إلى أحد الصيادين الذي كان يبيعنا ما يلزمنا من «الجنبري». وما يلزم للسراي من الفاكهة كنا نأخذها من متعهد آخر، وأثناء سفرنا كانت كل الزهور والرياحين تباع، وكل ذلك من أجل الكسب، والكسب متبوع بالاقتصاد والتوفير في الغالب، ولكن الاقتصاد مذموم في الملوك بقدر ما هو ممدوح في الأفراد، وكان يأمُرُ بالملابس إذا تقطعت بطائنها أن لا ترمى ولا تهمل، بل تعمل لها بطانة جديدة.

ولما كان الخديوي لا يكسب إلا مبالغ جسيمة ولا ينفق القرش إلا في موضعه فانه كان لا يعلم كيف أنني أشتري زهوراً بخمسة فرنكات وحجته في ذلك أن الزهور مصيرها إلى الذبول، ومع ذلك فان زهرة واحدة كانت تهدى إلي تجعله يدفع فاتورة حساب كبيرة على الفور، فقد كانت من عادة صاحبة مخزن الموضة الذي أتردد عليه في باريس أن تهدي إلى

كل منا زهرة جميلة بمجرد وصولنا، وفي هذه الأثناء تعرض علي أحدث أزياء القبعات لأنتقي منها على الأقل «دستة» لاستعملها أثناء رحلتي في أوروبا، وكان الخديوي لا ينظر كثيراً إلى المجموع الكلي، على حين أنه كان يدقق في المفردات، فمثلاً لا يهمه أن يدفع مائة ألف فرنك ثمن ملابس لي، ولكنه إذا قرأ في الفاتورة أن أحد الفساتين يساوي ٨٧٥ فرنكاً فانه يرى أن هذه الفرنكات زيادة عن اللزوم، ولهذا كان الموردون يضعون الأثمان دائماً بالأرقام الصغيرة فلا يرى الخديوي فيها شيئاً، وكان الماء لا يتسرب من بين أصابعه فكان يقول لي «إنني أعرف كيف أحافظ على المال» ولعل في هذا كثيراً من الحقيقة، فانني على عكسه لا أستطيع منع الماء من التسرب من بين أصابعي.

كان الخديوي في بداية كل عام يضع ميزانية لمشروعاته المعمارية في القاهرة، فانه كان ينشئ في كل عام عمارة، حتى أصبح يملك أحياء بأكملها، وكنا في المساء نخرج متنكرين للإشراف على ما تم من البناء وكان الخديوي يصعد (السقايل) ويتنقل فوقها بخفة مدهشة، وكان إذا مر على عمارة أخرى أدرك عيوبها على الفور، وكانت ملاحظاته دائماً في محلها.

وعندما أنشأ سكة حديد مريوط اختلف المهندسون على تصميم أحد الكبارى، وأخيراً أقروا جميعاً التصميم الذي وضعه الخديوي بنفسه، وقد عد الناس إقدامه على إنشاء هذا الخط ضرباً من الخرق ولكنه كان أبعد نظراً منهم وأحصف رأياً.

وقد كسب الخديوي قلوب العربان بإنشاء هذا الخط، فكانوا لا يتحدثون إلا باعتبار أنها سكتهم الحديدية.

ولم لا؟؟ أليست تقوم على (أرضهم)؟

كان عباس حلمي أول خديوي خضع له العربان بلا قيد ولا شرط، ولما ذهبنا لافتتاح خط مريوط وتناولنا القهوة عند شيخ العربان كان

يبدو على الرجل ما يُشْعِرُ بأنه يرى نفسه قريباً للخديوي وندا له رغم ما كان يبديه نحو شخص الخديوي من الاحترام.

ولم يحدث أن أحداً من العربان أخل بثقة الخديوي فيه إلا مرة واحدة، إذ كنا نقوم برحلة في الصحراء، كانت الخيام اللازمة للمبيت ترسل قبلنا بيوم لكي تكون معدة عند وصولنا، وكنا - أنا والخديوي - نركب سيارة ومعنا سائقان ويتقدمنا دليل عربي على جمل.

وسارت الرحلة ببطء واستقبلتنا الصحراء بأسرارها وجلالها وأصبح الطريق لا يزيد إلا عن بحر من الرمال مترامي الأطراف ويهيئ الرأي للعين أن كل شيء على مقربة منها.

ومالت الشمس ولم نصل إلى خيامنا، فأوقفنا السيارة وتكلم الخديوي مع الأعرابي، ولكن الأخير أكد أنه لم يضل الطريق، ولم يظهر على وجهه الأسمر أثر ما، فتتبعناه من جديد ثم حل الظلام وإذا بالدليل والدابة يختفيان فجأة كأنما ابتلعتهما الأرض أو طواهما ظلام الليل، وتابعنا رحلتنا على ضوء النجوم. فيا ترى هل تعطلت غريزة الأعرابي لأنه يقود آلة ولا يقود حيواناً، أم أنه فقد قياد جمله الذي رأى في السيارة منافساً له في الصحراء، فكره صحبتها!؟

مضت ساعتان ونحن لا نزال في الطريق لا ندري أنسير إلى الأمام أو إلى الخلف. ثم تولى الخديوي سياقة السيارة بنفسه، وجلست إلى جانبه فشعرت بالطمأنينة، وجعلنا نهتدي بالنجوم وأخيراً رأينا أضواء وسمعنا أصواتاً، وإذا بنا أمام فصيلة من الجند تهيأت للبحث عن الخديوي، ثم وصلنا إلى الخيام.

ومع أننا لم نقف فعلاً في الصحراء - فانه ليس من السهل أن يُترك الخديوي يضل في الصحراء ؛ ولكننا تذوقنا مقدماً طعم آلام الصحراء ولم يكد يختفي الليل حتى اتجهت أنظارنا جميعاً إلى وعاء الماء الذي له القول الفصل في الحياة أو الموت بين هذه الرمال.

وعندما أذكر هذه الحادثة الآن أشعر بجفاف في حلقي، وكأنه جفاف رمضان، فقد تنقلت بفكري بين غرف القصور ورمال الصحراء والشمس لا تزال باقية لم تغرب بعد.

ومن يدري بماذا أشعر عندما أعيد القراءة فيما أكتبه الآن في «تشنتلتك»؟ لاشك أني سأشعر بالجوع والعطش، ولكن ربما شعرت بالشوق أيضاً.

لماذا كانت الأميرة تتمنى أن تكون رجلاً صديقاً للخديوي وليس زوجة له

كانت كل الحيوانات التي تهدى إلي الخديوي ترسل دائماً إلى سراي مسترد. وفي مرة أهداه شريف مكة كلبين عربيين من كلاب الصيد في الصحراء وأرسل معهما بدوياً لكي يعطي التعليمات اللازمة عن أكلهما وشرابهما وهو بلح بنوائه وشرابهما اللبن، وقد أخذتهما معي في السيارة من القبة إلى مسترد. فكنت طول الطريق جالسة بين خطرين وكنت قد أمرت بإخلاء غرفة في مسترد لأجل الكلبين. ولكنهم نسوا أن يخرجوا منها دولاباً عالياً كان فيها، فكان الكلبان لا يفترقان عن هذا الدولاب في الأيام الأولى، ولكنهما بالتدريج أصبحا أليفين على أنهما لم ينزلا عن عادة الصحراء فكانا لا يذوقان اللحم، وإذا قدم لهما بلح خال من النوى فانهما لا يقربانه، وكانا يتراجعان أمام منظر الماء ولم نستطع أبداً إغراءهما بشربه.

ولما عاد الخديوي من الحج أحضر لي ببغاء اشتراها من أحد الحجاج، وكان اسمها «الحاجة فاطمة» وكانت آية في الجمال، وقد اختلط الأبيض والأحمر في حرير ريشها، ونظراً لحياتها البدوية وسكنى الخيام فقد تعودت الحاجة فاطمة علي الحذر واليقظة والصياح عند أقل حركة؛ ولما ملأت سراي القبة صياحاً أحضرتها إلى سراي مسترد، حيث أفردت لها غرفة مستقلة، وكانت حينما تطير في الصالة يضع الخدم فوق رؤوسهم مظلات حمراء عند اختراق الصالة، وذلك لأنه كان من عادة الحاجة فاطمة أن تقع على رأس الإنسان وتحاول أن تكشف بمنقارها عما تحت الجمجمة، وكانت هي الطائر الوحيد الذي لم يخضع لإرادة الخديوي، بينما كانت جميع الحيوانات تخضع للخديوي بمجرد النظر، كانت هذه

البـبغـاء تثـور وتصـيح عند رؤيتـه، ولعل السـبب في ذلك راجع إلى لون طربوشـه الأحـمـر الفـاتح ولما كـان طربوش السلطان أغـمق لوناً وكـان عظمتـه يحب الطيـور، فان الحاجة فاطمة سافرت على ظهر المحروسة لتكمل مجموعة السلطان عبد الحميد وتملأ يلدز بصياحها.

وفي الواقع كـان خضوع الحـيوانات للخديوي مدهشـاً، حتى كنت أستعمل مختلف الطرق واستغرق الوقت الطويل لكي أروض الحيوان الذي كان الخديوي يخضعه بنظراته فقط، فالجواد الذي يستعصي ركوبه كان يسلس قياده للخديوي، وكان الكلب «أورسي» إذا رأى سجادة الصلاة مفروشة فانه يسير بخضوع حولها في قدسية كـبيرة، وكان الخديوي يقول لي «إن الكلاب تضحك منك يا عزيزتي...» فلم أكن أتألم لهذه الكلمـة فـانه لا يسـيـئني أن تضـحك مني الحـيـوانـات، ومع ذلك فـان «أورسي» عندما لدغته عقرب في موضع حسـاس من جسـمـه، وقطع الطبيب الأمل في شفائه جاءوا به إلى مسـترد فمـا زلت به حتى شفي، ولست أعتقد أنه كان يضحك مني في هذه المرة.

***

لم يكن لعباس الثاني أصدقاء بمعنى الكلمـة. فرفاق الصبا أصـبحوا باورانا أو تشريفاتية فقط وأما صداقة الماضي فلا ذكر لها، وعلى العموم فـان التـاج يـفصل بين الملوك وبين الماضي، والحكام يعـيشـون دائمـاً في دائرة منعـزلة. فـلا هم بقـادرين على النزول عن مـسـتـواهم ولا أفـراد الشعب بقادرين على النظر إليهم إلا باعتبار أنهم حكام. ومنذ عرفت عباس الثاني وددت أن أكون رجلاً لكي أصبح صديقاً يخلص له باعتباره صديقاً لا سيداً، بيد أنني لو كنت رجلاً لما استطعت التعرف به.

إني لأرى من نـافـذة الكشك شـخـصـاً يلـتـقط الزهور بعطف وحنان ينمـان عن عاطفة رقيقة، وهذا الرجل طويل القامة عريض المنكبين قوي العضلات يدل انطباق شفتيه الشديد على عزيمة حديدية.

هذا الرجل هو فخر الدين، وهو منذ سنين الخادم الأمين للخديوي، الذي يضحي بحياته ألف مرة في سبيل سيده. ولهذا الرجل قصة غريبة، فقد كان حديث الناس في قوله، وكان معروفاً بأنه أقوى رجل في هذه المدينة، فكان الكل يخشون بأسه ويتجنبون الاحتكاك به، على أنه إلى جانب ذلك كان مشهوراً بالصدق والوفاء بالوعد، فكانت كلمة واحدة منه تقوم مقام ألف قسم من غيره، وكان يعيش مع زوجته وأولاده من قطعة أرض يزرعها بنفسه، وكان يجيد الرماية لدرجة أنه يستطيع أن يصيب طائراً في الجو وأن يعين موضع الإصابة.

وحدث أن فخر الدين هذا كان جالساً في قهوة يعزف فيها موسيقيان – رجل وفتاة – وكانت الفتاة قد أعجبت بفخر الدين، ولأمر ما أهان الموسيقي زميلته الفتاة، فلم يرق هذا في عين فخر الدين فتقدم إلى الرجل وقال له: «إنك تستحق الموت من أجل هذه الإهانة، ولكني سأمنحك فرصة تحاول فيها خلاص نفسك، فان استطعت أن تعزف على ظهر الكمنجة لحناً تسمعه أذناي فأنت ناج، وإلا فالموت لك».

ولم يستطع أحد أن يتدخل بين الرجلين، ووقف فخر الدين والمسدس في يده، وكان طبيعاً أن الخشب لا يعطي لحناً، وفي الحال خرجت الرصاصة من المسدس فأصابت ما بين عيني الرجل، وذهب فخر الدين إلى بيته وجاء وراءه البوليس يريد القبض عليه، ولكنه أبى أن يخرج مقبوضاً عليه، وقال لرجال البوليس: «اذهبوا وسأحضر بنفسي..».

ولما كان رجال البوليس يعرفون أن الرجل لا يكذب فانهم تركوه، وفعلاً ذهب الرجل بنفسه إلى قسم البوليس، فلما فتحوا له باب السجن نظر إليهم بسخرية وقال: «لقد وعدتكم بأن أسلم نفسي وها قد فعلت، ولكني أقسم لكم إني لن أمكث طويلاً في هذا السجن».

وظن القوم أن فخر الدين سيحنث بيمينه لأول مرة، ولكن لم يحن

المساء حتى كان فخر الدين يقترب من يخت المحروسة في قارب صغير، فوثق به الخديوي لأول نظرة، ومنذ ذلك الحين أصبح فخر الدين خادماً أميناً وتابعاً مخلصاً وحارساً خاصاً للخديوي، وكلما رست المحروسة في ميناء قولة كانت عائلة فخر الدين تأتي إليه على ظهر اليخت وتقيم معه بأمر الخديوي حتى يوم الرحيل، وفي هذه الأثناء يقف البوليس على الشاطئ في انتظار الرجل.

وفي هذا العام كنا قد قررنا عدم الذهاب إلى قولة، فمن يدري لماذا كان هذا الرجل يقطف الزهور بهذا الحنان؟

ألا يمكن أن يكون مشتاقاً لزوجته وأولاده؟ لئن كان شوق هذا الرجل يساوي قوته، فما كان أشد بأسه!!

ليست عندي صورة واحدة تروقني عن نفسي رغم كثرة الصور التي عندي فانها جميعاً تظهر وجهي كوجه الأطفال. وأظن ذلك راجعاً إلى أن المصورين لا يجيدون التصوير لأنهم يتخذونه مهنة لا فناً، ولعل أجمل صورة كان يمكن أن تمثلني على حقيقتي هي التي حاول أحد الأجانب التقاطها فتنبه إليه البوليس وصادر آلة الكوداك التي كانت معه. وإني لا أزال أذكر هذا الأجنبي إلى الآن، ولا أنسى صورته، فقد كان نحيلاً بارز عظام الوجه، ساطع العينين جداً. مفرطاً في الطول ولولا غرابة منظره هذا لما تنبهت إليه ولا لاحظت أنه يحاول التقاط صورتي.

كان ذلك أثناء حفلة المحمل في ساحة القلعة، حيث ازدحمت الجماهير من كل الأجناس واصطفت الجنود في الساحة وخصص مكان لنساء الوزراء والهيئات السياسية يفصله عن الجماهير كردون العساكر، ولما تكامل عقد الجمع جاء الخديوي في عربة تجرها أربعة من الجياد الصافنات، ووقف على المكان المخصص له ومن حوله الوزراء ورجال الدين ومشايخ الطرق ثم جاء الجمل الذي يحمل كسوة الكعبة الشريفة يقوده أحد المشايخ. فلما حاذى الخديوي سلمه الشيخ طرف الكسوة

فقبلها ووضعها على جبهته ثم أخذ بزمام الجمل وسلمه إلى أمير الحج.

وفي هذه اللحظة أزاحت النساء نقابهن وأطللن من العربات وكانت الموسيقى تصدح والنقود توزع على الجماهير. فشعرت بنظر ذلك الأجنبي متجهاً إلي، وقد اقترب من المكان المحجوز وتخطى الكردون وكان في لباس الضباط الإنجليز. وبعد أن التقط الصورة قفل راجعاً ولكن أحد الضباط المصريين تنبه فأخذ منه آلة الكوداك.

ويظهر أن هذه الحادثة لم تفت عين الخديوي، فاني لم أكد أصل إلى السراي حتى رأيت آلة الكوداك على المكتب فجعلت أمني نفسي بصورة جميلة، ولكن يا لضيعة الأمل. لقد كانت صورتي مشوهة لا تتميزُ من أية صورة عادية لامرأة رفعت نقابها، فكانت لا تساوي ما لاقاه الضابط من التوبيخ على فعلته وفوق ذلك ضياع الآلة الفوتوغرافية منه، وعندما أعود إلى القاهرة سوف أطلب أخذ المصورين إلى سراي مسترد لأخذ صورة تروقني وربما فضلت أن تؤخذ صورتي وأنا أعزف على البيانو.

زيارات الخديوي لأوروبا

كان الخديوي سريع الحركة لا يكل العمل ولا يمله، وكثيراً ما كان العمل يمنعه من تناول الطعام في مواعيده، وكان في أوروبا يميل إلى الأماكن المزدحمة بالناس، ولعل ذلك ناشئ من حياة العزلة التي يحياها في مصر، حيث لا يخرج إلا في حرسه، ويقف كردون العساكر بينه وبين الجمهور.

وكنا قبل البدء في الرحلة نضع برنامجاً دقيقاً عن البلدان التي سنزورها ومدة الإقامة فيها والأعمال التي نقوم بها، ولكن هذا البرنامج كان لا ينفذ إلا على الورق، وكانت الحقيقة دائماً تخالف التصميم، وكانت الأعمال تزيد بكثير على المقرر، وكانت باريس ميدان الحركة الدائمة فلا تكاد تمضي بضعة أيام على وجودنا فيها حتى تزدحم الغرف بالمشتريات من متجر إلى متجر لا نستريح إلا لتناول الطعام، فإذا حان المساء وعدنا متعبين إلى الفندق وجدنا الصالون مزدحماً بالمنتظرين من زوار وموردين بفواتير الحساب ورجال المعية بالمكاتبات، فكان ينهي كل هذه الأمور بسرعة شديدة ثم يرتدي بدلة السهرة ونذهب إلى بعض الملاهي حيث كان يسر سرور الأطفال، وبعد ذلك ننتقل إلى ملهى «فورا» وهو أكبر ملاهي باريس وأكثرها ازدحاماً، فكان الخديوي يتأبط ذراعي ثم نندفع في تيار الازدحام، وكنا نقف عند كل لعبة حتى يلتصق

الفستان بجسمي من شدة العرق ولكي يجف العرق كنت أقف عند لعبه البيضاء العائمة حيث أخسر بضع مئات من الفرنكات.

وحدث مرة أننا تشاحنا تشاحن الأطفال وسط الملهى، وذلك أن الجهد كان قد نال منا وأصبحت قدماي غير قادرتين على حملي وتصبب العرق من جسمي، وكانت السيارة تنتظرنا في الخارج، ولكني لم أستطع قطع المسافة إليها، فكان على الخديوي أن يذهب ويحضر السيارة فلما عاد وجدني راكبة في «المرجيحة» وقد أعجبني الهواء البارد الناشئ من دوران «المرجيحة» فجلست فيها لعدة أشواط ولم يكن معي نقود إطلاقاً، فكان الخديوي يدفع أجرة الأشواط وهو حانق، وأخيراً ركبنا السيارة ونحن غاضبان، ولكننا لم نكد نصل إلى الفندق حتى كان السرور قد عاد إلينا.

وكان الخديوي يحب زيارة الأسواق والمعارض ودراسة الآلات وخصوصاً القاطرات وكان يسوق القطار بمهارة فائقة. وعندما زرنا لندن كان في انتظارنا في ووفر بعض المهندسين الإنجليز، وكانوا يعلمون أن الخديوي يسوق قطاره بنفسه، ولهذا دعوه إلى الاشتراك معهم فساق القطار من ووفر إلى لندن، وبالرغم من أنه كان يلبس معطفا ونظارة فانه لم يسلم من سواد الفحم، فلما نزل في محطة لندن كان منظره موضع دهشة واستغراب من جميع مستقبليه.

ولم تكن حياتنا في المصائف بأهدأ منها في باريس فانها وان كانت تخلو من حركة المشتريات وكثرة السهرات إلا أنها حافلة بتعاليم الاستشفاء وأوامر الأطباء؛ وكان الخديوي يستشفي غالباً في «ديتور» بالقرب من جنيف، وقد كان ذهاب الخديوي إلى هذا المصيف سبباً في شهرته، فكان يتوافد عليه الناس للاستشفاء ولرؤية الخديوي؛ وكنت أرى كثيراً من المصريين ممن لا يسطيعون مقابلة الخديوي في مصر يحومون حول «الفيلا» التي نسكنها.

وكان الخديوي ينفذ أوامر الأطباء بدقة تخلصاً من الشحم الذي كان قد بدأ يظهر على جسمه، وبعد الانتهاء من الاستشفاء هنا كنا نزور عدة مصايف أخرى، وحدث في «اكس ليبان» أني - وبعد العشاء - أردت الدخول إلى صالات اللعب، وكان الخديوي لا يلعب أبداً. لأنه كان يبغض المال المكسوب بلا تعب، كما يكره أن يخسر المال بلا مبرر.

وفي صالة اللعب اتجهت كل الأنظار نحوي لا لأن حظي كان عالياً في اللعب، بل لأن مجوهراتي وملابسي أخذت بالابصار. واحمر وجه الخديوي وبدت عليه «العصبية» ولست أدري سبباً لذلك. فانه لم يكن من المعقول أن أقامر بجواهري أو فستاني. واستقر رأي الخديوي على أن أعود إلى الفندق فأنزع الحلي وأغير الملابس، ولم يجد في الاجتماع شيئاً. وعدت إلى الفندق. ولما رجعت إلى الصالة في زي بسيط لم يلتفت إليّ أحد وضاعت بذلك بهجة الليلة.

العلاقات الخاصة بين الخديوي
وأمراء العائلة المالكة

وفي فيشي رأينا أرملتي اسماعيل باشا جالستين في شرفة الفندق وعلى وجهيهما النقاب الأبيض وهما تدخنان وتستمعان إلى نغمات الموسيقى.

كان لاسماعيل باشا أربع زوجات. وعلى عكس المألوف كانت هؤلاء الزوجات صديقات لا شحناء بينهن ولا بغضاء، وقد ألف بينهن حبهن لرجل واحد.. هو اسماعيل.

كان اسماعيل قوي الشخصية، شديد العزم. فاستطاع بذلك أن يجعل من أربع «ضرائر» أربع صديقات. بل استطاع أكثر من هذا فضم إليهن صديقة خامسة، وهي امرأة تَدلَّهَ اسماعيل في حبها.

كان اسماعيل إذا أحب لم يترك لمحب بعده مجالاً. وإذا أهدى أغدق حتى أغرق، وإذا أراد البناء فانه يهدم حياً بأكمله ليشيد عليه ما يريد؛ ويستعمل آلاف الأيدي في البناء يعملون على ضوء الشمس نهاراً وتضيء لهم المشاعل ليلاً. وعلى هذا المنوال قامت سراي الجزيرة التي بناها خصيصاً للامبراطورة أوجيني لتكون لها مقاماً أثناء زيارتها لمصر. ولو استطاع لأحال مصر كلها إلى روضة غناء تخطر فيها هذه الملكة الجميلة.

ولما أبدت الامبراطورة رغبتها في الطواف بالقاهرة على ظهر حمار

رافقها الخديوي في هذا الطواف، ولما رجعنا من النزهة كان حريم اسماعيل على استعداد لاستقبال الامبراطورة ولم تشعر إحداهن بغيرة أو حسد.

وأثناء حكم عباس الثاني، بعد موت إسماعيل باشا وتوفيق باشا. كانت هناك امرأة كهلة في ملابس سوداء تزور مصر سنوياً وتبدأ مقامها في القاهرة بزيارة أرامل إسماعيل.

هذه المرة الكهلة كانت «أوجيني» امبراطورة فرنسا السابقة.

وقد احتفظت أرامل اسماعيل بعاداتهن حتى في أوروبا، فكن دائماً مقنعات ويأخذن الجواري والأغوات معهن، فإذا ركبن عربة جلس الأغا دائماً إلى جانب السائق.

وكان اسماعيل باشا يحب حفيده عباس حلمي حباً شديداً ويعطف عليه العطف كله، ويوجد في قصر القبة دولاب مقفل يحتوي على الأسلحة والهدايا التي يأخذها عباس من جده. ولما فتح الخديوي عباس هذا الدولاب وأراني نفائس محتوياته أعطاني علبة كبريت ذهبية قال إنها كانت هدية من الامبراطورة أوجيني إلى جده. ولا تزال هذه العلبة أمامي الآن. وعليها «مونجرام» ذلك الحاكم الكبير الذي كان يعرف معنى الحب.

ربما أسفت على أن رمضان ليس إلا ثلاثين يوماً، وذلك لأني تعودت فيه الجلوس إلى مكتبي وتدوين مذكراتي. وهذا ما لا أستطيعه في مسترد فهناك البيانو يغريني بالعزف عليه، ثم انني هنا أشعر بالحرية أكثر من هناك ولا أخشى العيون على ما أكتب.

زوجة الخديوي السابق

لو كنت باشا!..

لو كنت باشا لتركت جميع الجواري في قصري عذارى حتى تنتهي حياتهن التعيسة، ولا أفهم مطلقاً كيف أن رجلاً يملك قليلاً من حسن الاختيار ورقة الذوق يستطيع الاعتداء على هذه المخلوقات الذليلة المسكينة، وإذا فرضنا أن الشهوة الجسمانية المجردة لا ينقصها كثير من الشوق؛ فإن الشخص المحبوب يجب أن يفضل على آخر لا يرضى من الإنسان إلا الحواس فقط. وإذا فرضنا أن المرأة المحبوبة أرادت أن تكون ذات سلطان على عواطفها، فلا أقل من انها تجاذب الرجل عاطفة حبه. وحسبه هذا حتى لا يشعر باختلاف درجة العواطف إذ نبالغ عادة في تقدير عواطفنا الذاتية وفي التمتع بها ولو بدت لنا من طريق غير مباشر كما هي الحال في الحب الذي يرد إلينا، ولكن العواطف يسهل فيها الخداع والتمويه. أما الحاجيات المادية فلا – ولو كنت باشا لاتبعت ذوق أسلافي ولما رضيت الاستمتاع بأشباه النساء اللاتي يتوارثهن الأقرباء بعضهم عن بعض؛ واللاتي ينظر إليهن كمتاع جامد لا حياة فيه.

ليست شهواتي من المسائل التافهة حتى أعمل على تسكينها بأساليب سبقني إليها غيري. ويكاد يمليها عليَّ املاء ولو كان هذا الغير من أهلي وأقرب الناس إلي، كذلك يستحيل عليَّ أن أرضى بأن ينشأ

نسلي وتشب ذريتي بين أحضان ساقتها إليَّ الصدف، فان الغرس القوي يجب أن يزرع في أرض حرة.

لا أستطيع أن أفهم كيف تنازل سلاطين آل عثمان جميعهم عن الحرص على صفاء دمائهم؛ واختاروا غير الراشدات أمهات لأولياء عهودهم وفلذات أكبادهم، فليست هناك سلالة اختلطت بالدماء العربية مثل العثمانيين، إذ أمهات سلاطينهم جميعاً من الشركسيات أو الكرديات أو الروميات أو البلغاريات أو الأرمنيات دون التركيات. وفي مصر يكثر انتخاب الزوجات من الجواري، فان المطالب التي تطلبها الجارية ورغباتها في الغالب تافهة قليلاً إذ أنها بطبيعتها جبلت على الرضا. فهي ترضخُ لأمر سيدها، ولو لم تكن حرية المرأة من المسائل الطبيعية المألوفة لديهم فقد كانوا يقدرون المرأة الحرة قدرها، وكان كل باشا يعرف جيداً أن المرأة المولودة من أبوين نبيلين لا تعد نفسها مساوية له. ولا يسمح له بالنظر إليها نظرته إلى الجارية، ولذلك انصرفت رغبة رجال الطبقة الارستقراطية إلى الاقتران بالجواري.

وبينما يمتاز حريم السلاطين في الآستانة بما ورثته عن بيزنطة من مظاهر الأبهة والعظمة، فان الحريم المصري الذي ينتمي إلى أصل تركي لا يظهر عليه شيء من مجد الفراعنة.

وكثيراً ما أفكر فيما عسى أن يحدث لو أن الرجال عرفوا ما تعرفه المرأة عن بنات جنسها؟؟

لاشك أننا لم نكن نرى للحريم أثراً، إذ يعرف الرجل أنه دائماً مخدوع؛ وأنه وحده تقع عليه المسؤولية في فقر عاطفته وشعوره دون أن يحصل على شيء من الشهوات المادية يعادل هذا الفقر؛ بل هو قد خسر الملذات كلها لأن الشهوة الجسمانية تحتاج أيضاً إلى العناية والقيمة.

إنها تتطلب ضحايا كثيرة لتستطيع أن تحتفظ ببقائها إذ تعيش

على الرغبات التي تتمناها والآمال التي تحوّم حولها، فهي تستعين بكل ما تصادفه من حرارة، وما يلقاها من شرر متطاير، تتلقف الأنغام والألوان والروائح وتنغمس في قرارات القلوب والأرواح. وتبحث في نواحيها حتى تجد شوقاً هائماً تقدم له نارها وقوداً، كل ذلك ونبضات القلب أشد ما تكون يقظة وانتباهاً وبقاء، وإذا ما جمعت هذه العناصر المختلفة الألوان والأشكال نشرتها كما ينشر رداء أرجواني بهيج اللون وتقدمت به هدية ومتعة إلى من ينال الفوز والحظوة لديها، ولو كنت باشا ما رضيت غير هذه الشهوة، ولكن هذا النوع من الحسية المليئة بالحياة النضرة، لا سبيل لتمويهه في محيط الحريم الخانق، ومن المدهش أن التي خلقت لتكون متعة أصبحت وسيلة للقضاء على مزايا المرأة التي لا تستطيع أن تستعد بغير تنميتها.

إن منع المرأة من الاختلاط والسهر عليها بل وتقييدها أيضاً لا يحط من كرامتها ولا يقضي على حرمتها، لأن الحرص والغيرة التي يظهرها الرجل في ذلك تثبت لها حبه، لقد تغلغل الفساد في الحريم الشرقي من جميع النواحي، وهو في وسط لا يمكن أن يساعد على تربية الأطفال لما يعيش فيه من جراثيم، أما الحب فقد مسحه الجواري واتخذن منه آلة يستخدمنها لتحقيق مطامعهن، بينما أصبحت الأمومة واسطة لوقاية النفس من شر الضرائر.

ربما لا أستعيد قراءة هذه المذكرات بعد الآن، فاني بطبعي لا أقرأ الشيء مرتين حتى خطابات الخديوي التي كان يرسلها إلي لا أعيد قراءتها، وقد وصل إلي في أحد الأيام خطاب خشن من الخديوي وكان هو في سراي عابدين وكنتُ أنا في سراي مسترد أتهيأ للذهاب إلى عابدين لتناول الغداء معه، وكان السبب في ارسال هذا الخطاب الخشن هو انه بلغه - خطأ كالعادة طبعاً - أني دعوت بعض السيدات ولكني لم

أكن قد نفذت هذا العزم بعد ، وكانت نتيجة هذا الخطاب أن حفلة الشاي ألغيت.

وإنني لا أزال أذكر نظرتك بطرف عينيك إلى منفضة السجائر لتعرف إذا ما كنت أدخن في رمضان، ولكنِ اعلم أنه ان لم يكن لي وازع من ضميري فاني لا أخشاك وأجاهر بالتدخين أمامك.

لقد فرقت بيننا الأيام الآن، ومشى بيننا الدهر، ولكني على يقين من أن روحينا ما زالتا على اتصال فانك تشغل جزءاً من نفسي كما أشغل جزءاً من نفسك يحيا بذكراي، فإذا مت أنا فسيموت معي من نفسك ذلك الجزء الذي كنت أشغله.

منشأ الحريم وتطوره

كلمة (حريم) التركية مصدرها عربي، والفعل منها (حرم) ومعناه الممنوع غير الجائز؛ كما أن فيه معنى القداسة، فالكعبة حرم ومكان مقدس لا يجوز انتهاك حرمته، والذي يلجأ إلى الكعبة يصبح آمناً فلا يجوز قتله ولا مطاردته، وفي موسم الحج لا يجوز قتل أي كائن حتى في الدائرة الحرام.

على أنه لا توجد كلمة أسيء استعمالها بقدر ما أسيء استعمال كلمة (حريم) بعد أن أطلقت على القسم المخصص لسكن النساء في البيوت؛ وأصبح النساء فيه سجينات يقوم على حراستهن أغوات لا يصدعون إلا بأوامر أسيادهم الذين لهم مطلق التصرف في هذا السرب من السجينات، ويدعي هؤلاء الأسياد انهم يحافظون على النساء بهذه الصورة ويمنعون عنهم يد الغريب، ولكن الواقع هو أن المرأة لم تكن في حياتها أضيع منها وهي بين جدران الحريم؛ حيث تمتهن كرامتها وتضيع حقوقها التي نص عليها الدين الإسلامي، فقد كانت النساء في عهد النبي (صلعم) متساويات في الحقوق مع الرجال يغشين المجالس ويحضرن المجتمعات ويشتركن معهم في الصلاة، ولم تكن الصلاة في ذلك الوقت على ناعم الأبسطة وفاخر السجاجيد. وإنما كانت على الرمل والتراب وذلك لأن نعومة الأبسطة قد تجعل الإنسان ينصرف عن خشوعه في الصلاة، ونص الحديث على تحريم الذهب والحرير على الرجال، ولكن علماء الدين في العهد الأخير أغمضوا عيونهم عن هذا الحديث وراحوا يلبسون الحرير ألواناً ويتحلون بالذهب جهاراً.

ولم يأمر النبي (صلعم) بالفصل بين الرجال والنساء إلا عندما جاءه وفد

من النسـاء يشكو من اثرة الرجال وجلوسهم في الصفوف الأمامية في مجلس النبي بحيث كان يتعذر على النسـاء السؤال والمناقشة فأمر النبي بأن يكون للنسـاء مجلس خاص في يومي الاثنين والثلاثاء يشرح لهن فيه ما صعب عليهن ادراكـه ومناقـشـتـه في كل مـسـألة لكي يكن في إيمانهن على هدى، والدين الإسلامي قائم على العقل والإدراك، فهو لم يعرض شيئاً لا تقبله العقول.

ويبيح الإسلام للرجل المتزوج من أربع نساء عدا ما ملكت يمينه من الجواري أن يسوي بين الأطفال، فابنُ الجارية له نفس الحقوق التي يتمتع بها ابن السيدة، ولم يحرم الإسلام زواج الرجل من غير المسلمة، ولكنه جعل الولد تابعاً لأبيه إذا حصل على الطلاق.

وكـان للمـرأة نفس حـقـوق الرجل في طلب الطلاق إذا توافـرت أسبابه، ومن هذه الأسباب مرض لا يرجى شفاؤه، أو نقص في الرجولة، أو خيانة الزوجية، أو منع حقوق الزوجة، أو للقربة لهم أو عدم وجود التوافق بين الزوجين، وزادت المرأة على الرجل حقاً في طلب الطلاق وهو أن الزوج لا يستطيع الانفاق عليها.

وقد سلبت من المرأة كل هذه الحقـوق فلم يعد في إمكانها طلب الطلاق ولو كان زوجها أقل الناس عملاً بأوامر الإسلام.

وتدلنا القصة الآتيـة على أن النبي أجاز الطلاق إذا لم يكن هناك وفاق بين الزوجين وهو أنه (صلى الله عليه وسلم) رأى (مغيثا) يسير وراء زوجته (بريرة) وهي تُعْرِضُ عن حديثه ولا تعيره التفاتاً فأرسل في طلب الزوجين ونصح الزوجة بأن تبقى تحت طوع بعلها، ولكنها أجابت بأنها لا تحبه ولا تطيق الصبر على معاشرته فقال لمغيث إنه من العبث أن يمسك إنسان زوجة لا تبادله الحب ولا تريد معاشرته، ثم طلقهما.

وقد أعطى الدين للمرأة حق التصرف في جسمها فلا تمنحه إلا لمن تريد ولا تتزوج مكرهة؛ سواء في ذلك الحرة أو الجارية.

كل هذه التعاليم القديمة التي نص عليها الإسلام لعبت بها يد الذين لا ذمة لهم ولا ضمير، والذين أصبحوا لا يخشون الله إنما يبتغون مرضاة أسيادهم وملوكهم الذين يمنحونهم المال والحياة، فأخذوا يفسرون أوامر

الدين وفق الأهواء والأغراض، فوضعوا قواعد هي خليط من ممنوع وحرام، ولا اتصال بينها وبين قواعد الدين الأصلية، فالدين لم يقض بغطاء الرأس والوجه وإخفاء الشعر، وإنما جعل ذلك بعض السلاطين غيرة منهم على النساء ؛ والدين لم يأمر النساء إلا بستر أجسامهن لأنهن كن - في عهد النبي - يسرن بصدور مكشوفة وملابس لا تغطي كل أجسامهن، ولو أن عادة غطاء الرأس كانت معروفة أو جاء بها الإسلام لما استطاع النبي أن يرى زينب زوجة زيد وهي تمشط شعرها فأحبها، وقد ذكر ذلك في القرآن «وتخفي في نفسك ما اللهُ مبديهِ وتخشى الناسَ واللهُ أحقُ أن تخشاه »[1] ولما جاءه زيد يحدثه في طلاق زينب قال له « ... أمسكْ عليك زوجَكَ واتق الله... »[2] فلما طلقها زيد تزوجها النبي.

وكان النبي هو الوحيد الذي يعلم الناس دينهم إلا إذا حال بينه وبين ذلك مرض أو عاق عائق فانه كان يرسل من ينوب عنه، وبعد وفاة النبي كان العلماء يعلمون الناس ولا يتناولون عن ذلك أجراً أو يأخذون مرتباً، وظل الأمر هكذا حتى عهد معاوية، ففرض الأجور للعلماء وأجرى لهم المرتبات فأصبحوا خاضعين وينتهون بنهيه ويغمضون العين عن مساوئه، ويعيثون في الدين ما سولت لهم نفوسهم ابتغاء مرضاة السلطان.

حرم الإسلام قتل الأطفال وإجهاض النساء وكان العرب يفعلون ذلك خوف الفقر فنهاهم الإسلام عنه، لكن هذا النهي الصريح لم يجد منفذاً إلى جدران الحريم ؛ وليس الدافع للقتل هو الفقر، كما كان عند العرب، بل الاثرة والطمع وحب الملك والغيرة، وأمعن بعض السلاطين في الضلالة فسنوا قانون قتل الأخ محافظة على الملك.

فبأي حق بعد هذا تسمى تلك الدور حريماً تشبيهاً بالكعبة والبيت الحرام؟ ولو أنصفوا لسموها «بيوت الشرور» ولو اطلع النبي الآن على ما يسمونه «حريماً» وما افتراه السلاطين والعلماء على الإسلام لأنكرهم جميعاً وبرأ الإسلام منهم.

١- سورة الأحزاب الآية (٣٧).

٢- سورة الأحزاب الآية (٣٧).

تولى الخلفاء الراشدون شئون الإسلام من بعد النبي فساروا على منهجه وتبعوا خطاه، وبالرغم من توسع الأملاك وكثرة المال فان هؤلاء الخلفاء ظلوا يعيشون عيشة بسيطة لا يختلفون فيها عن سائر أفراد الشعب.

ولما آل الأمر إلى معاوية اتخذ دمشق عاصمة لملكه وبنى قصر الخضراء وخصص فيه جناحاً لسكنى النساء، فكان هذا أول حجر وضع في بناء الحريم.

وجاء من بعده ابنه يزيد فكان همه اللهو والنساء، وكان أول خليفة شرب الخمر جهاراً وأكثر من شراء الجواري وبناء القصور لهن ليتمتع بهن وحده، وانتهى عهد الفتوحات الإسلامية واشتغل الخلفاء باللهو وتعلقوا بالحب، فكان كل منهم يبز الثاني في اقتناء الجواري والراقصات ولا يعنيه من شئون الدولة إلا أن تكون لذته موفورة وجواريه حاضرة، فإذا سمع بجارية لا يدخر وسعاً في سبيل الحصول عليها ولا يقتصد في الثمن.

ولما آل الملك إلى العباسيين وكثر الطلب على الجواري ارتفع ثمنهن حتى بلغ ثمن الجارية مائة ألف درهم كان الخليفة يدفعها عن طيب خاطر ليرضي لذته ويطفئ شهوته، وملأ الأعين نهر الدجلة بالسفن يخالها الناظر أسطولا، ولم تكن إلا مسكناً للراقصات والمغنيات والجواري من بيض وسود، وامتلأت القصور بالأغوات والغلمان، وكانت كل جارية تسعى لامتلاك قلب الخليفة فحصل التنافس ثم الغيرة فالقتل بالسم أو الخنجر؛ وأصبح الحكم كله في يد النساء والموالي، فلما تقلب هو لاكراه ملك التتار على دولة العباسيين في خلافة المعتصم جلس ذلك الخليفة في قصره ينتظر دخول الفاتح ولم يجد طريقاً للدفاع عن نفسه إلا أن يملأ الأواني باللآلئ والجواهر ليقدمها للملك المغير؛ وفي ظنه أن هولاكو تبهره هذه النفائس، ولكن خاب فأله، فان ملك التتار وزع الجواهر على رجال جيشه، ثم أخذ الخليفة ونساءه، وكان عددهن نحو الخمسمائة إلى معسكره، وهناك أمر بوضع الخليفة في حقيبة من الجلد وأن يغرق في نهر دجلة بعد أن يطاف به في شوارع بغداد.

الحريم عند سلاطين آل عثمان

إن الباحث المتعمق في أعمال السلاطين العثمانيين لا يرى في أعمالهم أظهر من الخنق والشنق والتسميم والاغراق والحبس، فقد كانوا يعتقدون أن هذه الأسس تمهد للسلطة وتوطد مركز الخليفة لأنها تبعد المنافسين من الطريق، وكانت أنجح الطرق للتخلص من المزاحمين.

وليت شعري كيف كانت المرأة تصبر على آلام الحمل وهي تعلم أن طفلها سيقتل عقب الولادة؟ ولست أدري بأي عاطفة كانت تتقدم المرأة إلى السلطان تبادله القبلات وتنافس غيرها في حبه وهي لا تملك من أمرها سوى الساعة التي تحيا فيها، وربما لا تطلع عليها شمس الغد حتى تكون غريقة في البسفور، وأغلب ظني أن ذلك الزمن انفرد بصنف مخصوص من النساء لا يرين ولا يسمعن ولا يشعرن.

كان السلطان بايزيد الأول هو أول من وضع مبدأ قتل الأخ، وجرى السلاطين من بعده على هذه السنة بحكم العادة؛ ولمّا جاء السلطان محمد الثاني جعل قتل الأخ قانوناً من قوانين الملك وركناً من أركان حفلة التتويج؛ ففي اليوم الذي يتولى فيه السلطان يقتل إخوته، ومن عجب أن هذه الجريمة تستند إلى افتاء المفتي الذي يأبى إلا أن يفتري

على القرآن ويستوحي منه فتواه فيقول: إن حياة هؤلاء الإخوة قد تؤدي إلى الفتنة، ويقول القرآن: «والفتنة أشد من القتل».

ولم يكتف السلاطين بقتل الإخوة، بل كانوا يقتلون أبناء بناتهم وأبناء أخواتهم، فإذا ولدت ابنة السلطان أو أخته مولوداً ذكراً يقتل في الحال، وما نجا رجل من هذا القتل إلا إذا ساعدته ظروف قوية على الاختفاء أو الهرب أو شاء القدر أن يكون هو النجل الوحيد للسلطان، وكثيراً ما كان السلاطين لا ينتظرون حتى تضع المرأة حملها بل يعجلون بها إلى البسفور اقتصاداً للوقت والجهد، وظل قانون قتل الأخ قائماً حوالي أربعمائة سنة، إلى أن جاء السلطان عبد المجيد فألغى هذا القانون وصار الإخوة لا يقتلون ولكن يحيون.

واتسع ملك العثمانيين وآلت إليهم الخلافة فأصبحوا يلقبون «بظل الله على الأرض» فتوسعوا في اقتناء الجواري والغلمان من شركسيين ومجريين ويونانيين وبلغاريين وألبانيين، فمن نال منهم حظوة عند السلطان رُقِيَ إلى أعلى المناصب؛ حتى إن بعضهم أنعم عليه بلقب الامارة وكانت الحظوة لا تنال بذكاء العقول ولكن بجمال الأجسام.

رأى سليمان الأول، وكان في ذلك الوقت ولياً للعهد، فتى يونانياً يساعد أباه، وكان بحاراً، فأعجبه الفتى وراقه منه أنه كان يجيد العزف على الكمنجة، فاصطحب الفتى وقربه إليه، فكان لا يجلس في مجلس إلا والفتى إلى جانبه، فلما آل إليه الحكم رفع من شأن هذا الفتى وعرفه التاريخ تحت اسم ابراهيم باشا، فكان يركب إلى جانب السلطان في الغزوات والفتوح، ويستقبل معه رسل المماليك، ويدير معه شئون الدولة وأصبح وزيره الأكبر. ومع أن ابراهيم باشا كان مخلصاً لسيده ولم يسئ استعمال سلطته فان السلطان أمر بخنقه على حين فجأة، والواقع أنَّ ابراهيم باشا لم يقتل إلا بدسيسة امرأة.

ففي الوقت الذي علا فيه شأن إبراهيم في الخارج علا فيه أيضاً شأن

جارية في الحريم، وكانت تدعى «روكسلان» وكانت آية في الجمال؛ وساءها أن يشاركها أحد في الاستئثار بالسلطان، فما زالت تسعى حتى أغرت السلطان بقتل إبراهيم، ولم يقف تأثيرها على السلطان عند هذا الحد، بل جعلته يقتل ابنه مصطفى لأنه من امرأة غيرها.

ولم يكن من السهل إدارة الحريم، كما يجب، فرئيسة حريم مراد الثالث كان تحت حراستها أربعون محظية ومائة طفل وخمسمائة جارية، وفي نفس الوقت كان من واجبها أن تكون على اتصال بشؤون الملك في الخارج ومراقبة ما يجري في الحريم في الداخل، والعمل على ألاّ تتصل إحدى النساء بالحياة الخارجية، ولكن النساء كنَّ أمهر من أن تقف في سبيلهن الجدران، وثبت أن المحظية «روقية» وهي من فينيسيا كانت تراسل «كاترين دي مديسي» وكانت تحاول استغلال نفوذها لصالح بلادها.

واحتفل مراد الثالث بختان ابنه احتفالاً لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد، فأقيمت الأفراح خمسة وخمسين يوماً أنفقت فيها الملايين؛ وحضرها مندوبون من جميع الدول واتجهت أنظار العالم إلى قطعة جلد ستقطع من طفل.

أقيمت القصور الفخمة لسكنى الضيوف من ملوك وأمراء، وهدمت أحياء بأكملها ليقام فيها الاحتفال ووسعت الشوارع لمرور الموكب وأقيمت السرادقات والمسارح وجيء بالممثلين والمشعوذين وأرباب الألعاب من كل قطر حتى أصبحت العين لا تحصي عدد الملاهي.

وفي اليوم الأول من الاحتفال خرج السلطان في مهرجان عظيم إلى السراي المعد له ثم تبعه ولي العهد ثم السلطانات ثم الحريم بأكمله يحتاط به بحر من الاغوات السود، وأقبلت وفود المهنئين بنفيس الجواهر وفاخر الحلي وأنيق الثياب، وكان المهنئون يتنافسون في تقديم الهدايا، فكل منهم يحاول أن يبز الثاني في هديته.

وبعد ذلك ينصرف الجميع إلى مشاهدة الملاهي فيمر الدراويش والراقصات والمغنون والخيالة وحملة الرماح وألعاب الفروسية، فإذا حان المساء جاء دور الفقراء فكانت تذبح لهم العجول والخراف مما لا عدد له، وفي الليل تموج المدينة بالأنوار وتزدحم الشوارع بالناس، وتسير المركبات الفخمة متنقلة من سراي إلى سراي، والناس يهللون احتفالاً بطهور صبي.

وبعد أن شفي الغلام أهدى له أبوه جارية من أجمل الجواري مكافأة له على احتمال الألم.

وتتابع سلاطين آل عثمان وكلهم سواء في العسف والظلم حتى جاء ابراهيم الأول فكان عبداً لشهوته، فكان مقامه في الحريم على الوسائد الناعمة وحوله النساء والغلمان والزهور والروائح العطرية وكل ما من شأنه إثارة الشهوة، وكان يتأنق في ثيابه ويسرف في التحلي بالجواهر؛ حتى انه كان يعلق الجواهر في لحيته، وزين مركبته وسروج خيله بالذهب الخالص، وكان يطوف أحياناً مع وزرائه في المدينة ثم لا يلبث أن يقطع الطواف ويسرع في العودة إلى الحريم. وحدث مرة أنه أثناء طوافه رأى امرأة كبيرة الجسم فأعجبه هذا النوع من النساء، فأمر أن يؤتى له بأسمن امرأة في المدينة، وخرجت الجنود للبحث وجاءوا بنساء كثيرات لم يوافقهن خياله، حتى عثروا أخيراً على أرمنية حازت رضاء السلطان فقربها إليه، وأخذ نفوذها يكبر بنسبة جسمها حتى تضاءل أمام نفوذها نفوذ السلطان ونفوذ المحظيات الأخريات فتآمرت المحظيات ضدها، وبلغها خبر المؤامرة فأقامت وليمة دعت إليها غريماتها، ثم أمرت بخنقهن على المائدة، وانفردت هي بالسلطة، فكانت تغري السلطان بقتل من تشاء وترفع من تشاء، والسلطان لا يرد لها كلمة لأنه كان عبداً لشهوته، والويل للطبيب الذي ينصح السلطان بمراعاة صحته، فانه يعرض نفسه لغضب لا يعرف نتيجته.

وفي عهد مراد الرابع علا نجم غلام جميل اسمه (حسن آغا) وأحبه السلطان حباً جعله يأمر بأن تقدم له واجبات الخضوع كما تقدم للسلطان نفسه، وأن تصنع ملابسه من نفس القماش الذي تصنع منه ملابس السلطان، وأن يكون جواده وجواد السلطان متماثلين في الشكل واللون، وقام الكتاب والشعراء يصوغون المديح في حسن آغا ابتغاء مرضاة السلطان فسموه «الشمس المشرقة» وكان السلطان يسر لهذا المديح ويغدق على قائله بالعطايا.

ولكن الحريم ثارت وساءها أن تنتزع منها السلطة، ورأت النساء أن يتخلصن من هذا المنافس، فاتفقت أم السلطان مع المحظيات وكبير الخصيان على الكيد لحسن آغا. ولكن هذه المؤامرة أسفرت عن غضب السلطان على كبير الخصيان فأمر بقتله، ولم تستطع أم السلطان أن تستبدل بهذا القتل النفيَ، وظلت «الشمس المشرقة» تشرق على الشعب دون أن يمسها سوء، ولكن حسن آغا أبطرته النعمة ونسي أنه وان كان يلبس كملابس السلطان فان منزلته ومرتبته هي بواب.

وليس من العجيب أن نرى سلاطين آل عثمان إذا جلسوا على العرش أصبحوا كالوحوش الضارية فان ذلك يرجع إلى أن الواحد منهم يظل، وهو ولي العهد، سجيناً، فلا يغادر سجنه إلا إلى العرش، وكان لولي العهد حريم خاص وسط الحريم العام. فكان في سجن من داخل سجن، ولا يجوز لإنسان أن يخاطبه دون إذن السلطان، وبالرغم من أن هذه العيشة لم تكن جذلة ولا ترتاح إليها النفوس فإن بعض أولياء العهود كانوا يأبون مبارحة حريمهم إذا انفتح لهم الباب لتنسم الحرية، وذلك خوفاً من أن يكون في الأمر دسيسة من السلطان يحاول بها قتلهم وكان أغلبهم لا يغادرون حريمهم إلا إذا جاءوا لهم بجثة السلطان الميت.

وعندما يتولى السلطان تسير حريمه لاحتلال السراي وطرد حريم

السلطان الميت إلى سراي قديم وقد تثور الحريم المطرودة لسلطتها الضائعة، فيملأون الجو صراخاً ويكسرن الشبابيك والأبواب ويخرجن في القصر بقدر ما يستطعن، ولعلم النساء بأن مدة سلطتهن لا تطول إلا بقدر ما يعيش السلطان فقد كانت إحداهن إذا نالتها الحظوة أسرفت في استعمال نفوذها لأن الوقت قصير؛ وكانت تدور في الحريم حرب خفية لاكتساب رضى السلطان والاستبداد بالنفوذ.

وهكذا ظلت الحريم يتعرضن في شؤون الدولة والنساء يحكمن من خلف الستار حتى تولى الباديشاه عبد الحميد خان ساكن قصر يلدز.

الحريم في مصر

لا يكاد الرجال، وعلى الأخص الأوربيون، يسمعون كلمة الحريم، حتى ينصرف خيالهم إلى الرقص والغناء أو بركة من الماء المعطر تتواثب حولها العذارى والفتيات يسبحن ويرقصن ويغنين.

ولكن الذي وقعت عليه عين الحريم في مصر ليس فيه شيء من هذا الخيال. فالجواري فيها فتيات يلبسن ملابس بسيطة نظيفة، ولكنها غير مغرية، فالحريم بكليته تسيطر عليه امرأة. وهي زوجة السيد أو أمه أو رئيسة الجواري، وفي كل هذه الحالات تحرص صاحبة السلطان على ألا تبدو الجارية أمام سيدها جميلة؛ فالزوجة تفعل ذلك بدافع الغيرة. والأم حرصاً على ألا يتزوج ابنها من جارية، ورئيسة الجواري طمعاً في أن تصبح هي السيدة.

وعلى هذا فالجواري في مصر لسن أداة للتمتع واللهو، وإنما هن خادمات، وإن كن أقل من الخادمات حقوقاً، فهن لا يتناولن أجراً على خدمتهن، ولا يستطعن مغادرة بيت المخدوم إلى بيت سواه.

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجواري فيها، لأن التقاليد في الحريم المصري تقضي بألا تقوم السيدة بعمل ما، ولو كان في متناول اليد، فتقديم القهوة له نظام خاص، وحمل الملابس على البدة له نظام خاص، وتقديم كأس من الماء له نظام خاص أيضاً، ولهذا قد يرى الإنسان كثيراً من الجواري منهمكات ولا يرى عملاً يؤدى، فهناك مثلاً

«سفرجي كالفة» ووظيفتها الخدمة على مائدة الطعام فقط، وهناك «قهوجي كالفة» وعملها تقديم القهوة فقط، وهنا «شمورجي كالفة» ووظيفتها تحضير الملابس للسيد، وعملها ينحصر بين الحمام وغرفة الزينة وغرفة النوم. ولذلك ترى السيدة «هانم أفندي» فيهن الخطر كل الخطر لكثرة احتكاكهن بالبيك أو الباشا، ولكي تأمن السيدة شرهن تغدق عليهن الهدايا لتكسب مودتهن أو تنزل بهن سخطها لتجعلهن من غضبها على حذر، على أن النتيجة في كلتا الحالتين غير مضمونة ولهذا تهتم بعض السيدات بخدمة زوجها بنفسها، إما بدافع الحب أو بدافع الحذر وخصوصاً إذا كانت هذه السيدة أصلها جارية ثم أصبحت «هانم أفندي» فانها تعرف فقط كيف تبعد الجواري عن زوجها.

وكان البيك أو الباشا رمزاً للسيادة فقط، ولكنه في الواقع لا يعرف شيئاً مما يحدث في داخل الحريم ولا يهتم لمعرفته، فإذا دخل إلى البيت يلقاه الجميع بالخضوع الواجب وابتسامة لا تفارق الثغور، والويل لمن تتقدم إليه بشكاية فان هذا يعكرُ مزاج البيك، وما وجد الحريم إلا ليدخل على نفسه السرور، وهذا فضلاً عن انه لا يستطيع أن ينفع الجارية بشيء إذا شكت إليه، بل ربما جلبت شكايتها لها آلاماً جديدة.

يبيح الدين للرجل أن يخالط جواريه وينص على أن ابن الجارية لا يقل عن ابن السيدة في شيء ولكن من ذا الذي يتبع تعاليم الدين؟ وحتى إذا فرضنا أن الرجل خالط جاريتة بنية حسنة - وما أقل ذلك - فان هذا غير كاف لأن تبلغ الجارية أملها، فالسيد قضى ساعة لهوه وانتهى، والجارية تظل رهينة الخوف من العين الرقيبة ولا تستطيع أن تبوح بسرها لأحد، ولمن تبوح؟ ربما إلى جارية مثلها والجواري يدعون بعضهن «همشريم» أي أختي، وهن فعلاً أخوات في الشقاء، أخوات في الطموح، أخوات في الضعف، وربما باحت إحداهن بسر أختها تحت تأثير الخوف ليس إلا.

أتبوح بسرها إلى أحد الأغوات؟ قد تجد من هذا الرجل بعض العطف أو تسمع منه كلمة تعزية ولكنهم جبناء لا يستطيعون شيئاً.

وهكذا تظل المسكينة فريسة الخوف وهي تعلم أن سرها سيفتضح يوماً ما، وأنها ان استطاعت أن تحبس لسانها فان جسمها سينم عنها، فربما كان من الخير أن تخبر سيدها بالأمر. ولكن كيف تخبره، انها لا تجمعها بذلك السيد إلا جامعة الطاعة العمياء، ثم هي تقوم على خدمته كل يوم فلا يعيرها التفاتاً بعد تلك الليلة، ويتناول منها الملابس حسب عادته القديمة، بسرعة أو بتؤدة، دون أن يلحظ أنها هي، هي بعينها، تقوم على خدمته.

وها هي أخبرته، فماذا هو صانع؟ سيحيلها على الهانم لتدبير الأمر، والهانم لها أولاد.. ولا يعجبها طبعاً أن يكون هناك أولاد من غيرها يشاركون أولادها في الاسم والجاه والميراث. وهنا ينصب على الجارية غضب الهانم مزدوجاً، غضبها بصفتها زوجة، وغضبها بصفتها أماً. وإذا أراد السيد ألا يكل الأمر إلى الهانم. وفضل أن يخبر رئيسة الجواري لعلها تتدبر الأمر، فان النتيجة لن تكون خيراً من الأولى، لأن الرئيسة تكون دائماً - في صف الهانم، وقد لا يخبرها بالأمر مباشرة خوفاً من سيدتها، ولكنها لا تعدم وسيلة تفهمها بها حقيقة المسألة وتأمر السيدة بأن تعفى الجارية من العمل وتلزم غرفتها لا للراحة كما قد يظن، ولكنها تحبس في الغرفة لتذوق العذاب. وأعرف قصة جارية حبستها سيدتها في الغرفة وأمرتها بأن تحيك «ناموسية»؛ فكانت كلما حاكت جزءاً قطعته السيدة بحجة انه خطأ، وترشد الجارية إلى الصواب ويكون هذا الارشاد دائماً مصحوباً ببعض الكلمات والرفصات والقرصات، فإذا جاء اليوم الثاني وفعلت الجارية حسب الإرشاد اكتشفت السيدة خطأً جديداً، وفعلت بها فعلة اليوم السابق.

ولا يكاد يختلف حريم في مصر عن آخر، فالأساس متشابه والنظام

واحد، وبعد شرب القهوة يبدأ الحديث، وهو حديث عجيب، فمثلاً عيشة هانم ظلت مدة لا تلد وكان يقتلها الشوق إلى الأطفال، فأشارت عليها جاريتها العجوز بأن تزور النخلتين، وهما نخلتان لا تفصل بينهما إلا فرجة بسيطة فأخذت عيشة هانم تتردد يومياً على النخلتين وتمر من بينهما، فرزقها الله بغلام... ما شاء الله!!

وفي حريم أحد الأمراء أصيب طفل بحمى التيفود، وحار الأطباء في علاجه فجاء آغا القصر وكتب آية من القرآن على ورقة، ثم وضع الورقة في كوب من الماء حتى محيت الكتابة، وسقى المريض من هذا الماء المخلوط بالحبر فشفي بعد خمس دقائق... ما شاء الله!!

ونساء الحريم جميعاً يؤمن بالخرافات ويعتقدن بالسحر؛ فمنهن من تأتي بعظام الحيوانات فتقرأ عليها التعاويذ وتبخرها ثم تضعها تحت رأس زوجها لكي تطرد من قلبه حب واحدة أخرى؛ ولا تبخل الواحدة بالمال في سبيل الحصول على شراب الحب، وهو شراب يجهزه بعض المشايخ «التابعين»، ويقرؤون عليه عزاءهم وتعاويذهم فإذا شرب منه الزوج أحب زوجته إلى حد الجنون، وإذا أخفق فعل السحر لم ينسب ذلك إلى كون كل هذا دجلاً لا طائل تحته، وإنما يقال ان الهانم لم تستعمل السحر حسب الشروط المطلوبة وهنا أقول أنا.... ما شاء الله.

ولم يكن مسموحاً للطبيب بعيادة الحريم، فكانت مرضى الحريم تُداوى بطب التجارب، فإذا استعصى الداء واشتد الخطر جاءوا بالطبيب ولكن لا يسمحون له برؤية المريضة شخصياً والكشف عليها بل يتولى أحد الأغوات «الترجمة» بين العليلة والطبيب، فيصف للطبيب أوجاع المريضة وما تحس به، وهذا يصف العلاج اللازم، فإذا أخفق العلاج، وهو المنتظر في مثل هذه الأحوال اعتبر أنصار القديم هذا الاخفاق انتصاراً لهم؛ واتخذوه ذريعة للطعن في الطب والأطباء. وإذا شفي المريض لم ينسب هذا إلى مهارة الطبيب. ولكن إلى تعويذة الشيخ أو إلى دواء (بلدي)

وصفته (الحاجة)؛ وبالتدريج سمح للطبيب بعيادة المريضة شخصياً بشرط ألا يرى وجهها، فكانت تقنع وتحجب ولا تكشف إلا عن موضع الألم، ويكون رئيس الأغوات حاضراً ساعة الكشف.

ولم تكن نساء الحريم تفهم الأمومة على حقيقتها، بل كن يعتبرن الأولاد وسيلة لتوطيد مركزهن ودرء الخطر عنهن من طلاق عاجل أو زواج بأخرى، فالأطفال في نظرهنَّ درع يقيهنَّ شر الضرة، فإذا حدث أن الزوج تزوج بأخرى بالرغم من وجود الأطفال، فان الأم تصب غضبها عليهم لأنهم لم يستطيعوا درء الخطر، فتحرمهم من اللعب والفسحة وتهمل شأنهم، وتقسو عليهم، وكأنها نسيت أنها تعذبت في حملهم شهوراً، وهم في نظرها هدايا منحتها لزوجها لتغريه على البقاء معها، فإذا لم يفلح الاغراء فهي تحاول إتلاف الهدايا وتكسيرها.

على أن الخطب قد يهون إذا كانت الضرة في داخل الحريم، فان هناك عيناً ترى وأذناً تسمع وفرصة للكفاح واسترداد الزوج بالتحبب إليه أو الطعن في الزوجة الأخرى، ولكن البلوى تكبر والمصيبة تعم إذا كانت المنافسة أفرنجية يقابلها الزوج خارج المنزل، وتحول جدران الحريم دون وصول الزوجة إليها، فان سبل الكفاح هنا تكون ولا محل للمنافسة إطلاقاً، وتصبح الزوجة مكتوفة الأيدي أمام عدو لا تراه ولا تستطيع الوصول إليه. والويل للأطفال في هذه الحالة، فانهم يشردون في بيت أبيهم، والتي تشردهم هي أمهم التي ولدتهم، فأنستها الغيرة حنان الأمومة.

أما التعليم فحظ الصبيان منه أوفر من حظ البنات قعيدات البيوت، ففي الطبقة المتوسطة يرسلون إلى المدارس، وفي الطبقات العليا يرسل الأولاد إلى أوروبا للدراسة، أو يؤتى لهم بمعملة افرنجية لتعلمهم في البيت، ولكن الأم ترى في هذه المعلمة خطراً على مركزها تصعب عليها مأموريتها فتتدخل في الدرس. وهي لا تستطيع كتابة اسمها، فتشطب من جدول الدراسة ما تريد وتقرر ما تريد حتى يضيق ذرع المعلمة

فتهجر البيت، وتأتي غيرها فيقع لها ما وقع للأولى، وأخيراً ييأس رب البيت فلا يأتي بمعلمات ويحرم الأولاد من التعليم، وإذا أسند الدرس إلى معلم سعى به السعاة إلى سيدهم وطعنوا في كفاءته وأخلاقه، فان لم تجد هذه الطعون أذناً عند السيد أتوا إليه من طريق قل أن يخفق، فيدعون أن المعلم طعن في الإسلام والنبي وانه يلقن الأطفال تعاليم النصرانية. ومهما كان رب البيت واسع التفكير فانه لا يسمح مطلقاً بالطعن في دينه فيخلي سبيل المعلم. فلا عجب بعد ذلك إذا كان أولاد الحريم غير محبين للعلم، حتى إن الخديوي عباس حلمي الثاني كان لا يفهم شغفي بالمطالعة. ورأى مرة كتاباً في يدي فقال لي (ما هذا الحيوان؟) وما هي الظروف التي جعلت من خديوي مصر رجلاً من كبار المولين. ومن زوجة الخديوي أديبة وكاتبة. فهل نرى أكان كل منا على حق في رأيه، أم كنا كلانا على ضلالة!؟

على أن لكل قاعدة شواذا. فان البرنس كان أميراً وشاعراً. وكان يركب عربته فتطوف به الساعات الكثيرة وفي يده كتاب يقرأ فيه. وإلى جانبه عدة كتب أخرى. وأغلب ظني أنه ما كان يعمد إلى هذه الطريقة إلا ليستطيع التفرغ للمطالعة بعيداً عن الزيارات والمحادثات التليفونية والمقابلات التي تصرفه عن كتبه العزيزة.

ولما أردت أن أتعلم اللغة العربية وأتعمق في دراستها ودراسة الإسلام. وكان من المحال إسناد هذا إلى أحد العلماء لجهله باللغات الأوروبية التي أجيدها. ووكل أمر تعليمي إلى المستشرق العظيم البروفسير «هس» وهو رجل لا أزال أذكره بخير وأشكره على كل كلمة علمني إياها. فكنا نجلس في غرفة المكتب في سراي (مسترد) ويبدأ في درسه. فأتنقل معه من مكة إلى المدينة. ومن الحضر إلى البادية في خفة ومهارة، حتى إن قواعد اللغة العربية على صعوبتها وجدتها منه سهلة التناول، وكان يعلمني الإسلام من آيات القرآن. وكنت أقابله لابسة

معطفي وقد وضعت على رأسي غطاء. ولكنهم طلبوا مني يوماً أن أغطي كفي أيضاً. إذ لا يجوز أن أمد له يدي عارية!!

عجباً!! المعلم لا يحق له أن يرى يدي، وهو الذي يرى نفسي كلها. أليس هو الذي يرى روحي؟ هنا علمت أن القوم إنما يريدون أن يجعلوني عبدة لتقاليد جامدة نشأوا عليها ولم يفكروا فيها.

وكان عندي في سراي «مسترد» خادمة اسمها «جبريلة» تقدمت بشهادات حسنة ممضاة من مركيزة أو فيكونتة أو بارونة. ويشهد الجميع بأنها نعم الخادمة. وفي الواقع كانت نشيطة وتفهم ما أريد بإشارة بسيطة. وكانت الخادمات يكرهنها لأنها كانت دائماً تحاول التقدم عليهن والتقرب مني وكانت تنتظر عودتي في المساء مهما تأخر الوقت فلا تنام حتى آوي إلى فراشي. فاغتبطت بها كثيراً. وخرجت مرة لبعض الشئون فلما عدت أخبرني الخدم بأن «جبريلة» عزفت على البيانو أثناء غيابي فلم أعتبر هذا خطيئة تستوجب العقاب. لأني أنا شخصياً أعزف على البيانو. فلا أستطيع أن أحرم على غيري ما أحله لنفسي. ولكني سألتها أين تعلمت العزف. فأجابتني بأنها كاثوليكية وتعلمت العزف في الكنيسة فأصبحت أنظر إليها نظرة أخرى. ولكن لم يخامرني في أمرها شك.

وكانت تضيع مني بعض أشياء وقطع من الملابس. وأخيراً ضاعت مرآة جميلة باطار مرصع. وبالرغم من أن الخدم جميعاً يكرهون جبريلة فانهم شاركوني في الرأي في أنه لا يمكن أن تكون هي السارقة. فطمأنت الخدم بأن الأشياء سوف توجد من نفسها.

وحدث أنني أرسلت خادمتي الأولى «هرملين» إلى الاسكندرية. فأخذت جبريلة مكانها في هذه الليلة ونامت في الغرفة المجاورة لغرفتي. وكنت في هذه الليلة متعبة. وقالت جبريلة وهي تسدل الناموسية انها ستسهر في غرفتها إذ ربما أحتاج إليها. ولكنني أمرتها بأن تنام فلن أحتاج إليها. فاطفأت النور وخرجت. واستسلمت للنوم فحلمت أنني في

غابة كثيفة مظلمة جداً. فكنت أتلمس الطريق بيدي. وفجأة رأيت شعاعين من نور يقتربان مني. ثم تبينت أنهما ليسا شعاعي نور بل نظرتين، فاستيقظت من نومي فرأيت عينين تحدقان بي أحداق سوء... جبريلة!!

واعتذرت عن وجودها إلى جانب فراشي بأنها ظنَّت بأني ناديتها وطار النوم من عيني وشعرت بأنها تكذب. ولو لم تكن نظرتها نظرة سوء لما أيقظتني من النوم. فشغلني أمرها وأصبحت في نظري لغزاً سرني حله..

وبعد بضعة أيام وصل إلي التماس من رجل عبثت به الأيام يرجو مساعدته في الحصول على وظيفة. أو منحه أجرة السفر للعودة إلى بلاده. وجلست أقرأ وكانت جبريلة في الغرفة ترتب بعض الأشياء، فقالت بصوت ضعيف «إنني أعرف هذا وهو إنسان ذكي تعيس ويا حبذا لو تنازلت صاحبة السمو ورأته شخصياً لتتأكد بنفسها من صحة ما أقول» فأجبتها إلى هذا الطلب لأنني أدعي معرفة النفوس. فذهبت إلى باب الحديقة تتبعني جبريلة. فوجدت رجلاً نحيلاً شاحباً. ولكني لم ألاحظ عليه الذكاء المنشود، ومع ذلك لم أبخل عليه بالمساعدة.

وحدث أنني احتجت إلى مفتاح كانت تحمله جبريلة. ولما لم تكن هي موجودة أرسلت من يبحث عن المفتاح في غرفتها ولكنهم وجدوا بعض الأشياء الضائعة. ومن ضمنها المرآة الثمينة. وعثروا على خطابات حب ومراسلات بينها وبين قسيس في دير. وفيها شكر على الملابس التي وصلت إلى الدير وكشف بطلبات جديدة. ولما عادت جبريلة لم تفقد رزانتها. بل تقدمت بكل جرأة وقالت انها تنتظر العقاب الذي سيحل بها، فأطلقت سراحها دون عقاب. وعلمت فيما بعد أنها التحقت بأحد الأديرة، وأما الرجل الذي أحسنت إليه على باب الحديقة فقد اكتشف البوليس أنه فوضوي ونفاه إلى بلاده.

دراسة عن: عهد جويدان

بقلم: سعد رضوان

أيام جويدان

إذا كانت الأميرة جويدان قد قدمت لنا في مذكراتها جانباً من الحياة في عهدها فانها قد أطلعتنا على الجانب الذي عرفته من الحياة في القصور التي عاشت بها هذه البنت الشقية أو الأميرة المدللة.

ولكنها لم تكلمنا عن باقي أفراد وطبقات الشعب المصري في عهدها، والحق أنها لم تكن لتستطيع فحياتها كأميرة زوجة للخديوي في عهد بدأ فيه تعليم النساء وخروجهن على استحياء، لم تمكنها هذه الظروف من الاطلاع على تلك الحياة...

والباحث إذا أراد الاطلاع على عهد من العهود فان أول ما يفعله هو البحث عن جرائد وصحف هذا العهد.

والغريب أن الصحف في عهد جويدان كانت كثيرة ومتقدمة بشكل غير متصور، وهي في نفس الوقت متنوعة منها الأدبية والخبرية والسياسية.

وهل أخبرك أن جورجي زيدان - أسس مجلة الهلال في نفس السنة التي اعتلى فيها زوج جويدان العرش أي عام ١٨٩٢.

وكانت الأهرام قد ظهرت قبل ذلك ببضعة أعوام فأسسها سليم وبشارة تكلا عام ١٨٧٥ وهي أكبر جرائدنا اليومية اليوم وقد أسس يعقوب صروف عام ١٨٨٨ بالاشتراك مع الدكتور فارس واسكندر مكاريوس جريدة «المقطم» التي استمرت في الظهور حتى عام ١٩٥٢.

ومن صحف ذلك العهد السياسية «الجريدة» التي أسسها أحمد لطفي السيد كلسان حال حزب الأمة.

على أن أهم جريدة سياسية هي تلك التي ظهرت في مطلع القرن وأصدرها مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني في يناير عام ١٩٠٠ وهي جريدة «اللواء» التي ظهرت لتنافس ٥٣ جريدة ومجلة مختلفة كانت تصدر وقتها.

ولاشك أن رقم الثلاثة وخمسين رقم ضخم يفاجئ القارئ، ولكنه الواقع... الواقع في شعب تعداده كان تسعة ملايين نسمة منهم سبعة ملايين ونصف من العمال والفلاحين والصناع ومليون ونصف من الملاك شبه المعدمين الذين لا يملك الفرد منهم أكثر من فدان واحد بينما يملك ١٢,٥٠٠ فرد أكثر من ٢٠٠ فدان للفرد ويبلغ أجر العامل أو الفلاح في اليوم ما بين قرشين وثلاثة قروش وميزانية الدولة سنة ١٩٠٠ كانت أحد عشر مليوناً وفي السنوات السبع من مطلع القرن أي من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٠٧ تأسست في مصر مائة وستون شركة مجموع رأسمالها ثلاثة وأربعون مليون جنيه.

لاشك أن هذه الأرقام عجيبة ولكنها كانت بداية نهضتنا.

وفي الكلام عن صحافة العهد يحسن أن أرجع إلى الوراء قليلاً ففي عام ١٨٦٠ اكتشف السلطان عبد الحميد أن بلاد الشام أي سوريا ولبنان أصبحت كافرة ودخلتها أشياء لا يقبلها شرعه كالصحف والمسارح والفنون، وكان اضطهاد وثورة ضد هذه البدع بل وحدثت مذبحة ضخمة في سوريا.. وهكذا لا تعجب من أن يهاجر الصحفيون الشوام إلى القاهرة ويستقروا بها كما هاجر رجال مسرحهم وأهل الأدب والفن عندهم.

تقرير قصر الدوبارة:

وهذا جزء من تقرير كتبه المعتمد البريطاني اللورد كرومر الذي كان يحكم مصر من «قصر الدوبارة» الذي هو الآن مقر السفارة البريطانية بالقاهرة يقول التقرير الذي نشر عام ١٩٠٦:

«إنه مما يؤسف له أن الصنائع اليوم في انقراض.

فالترمواي يحل محل الحمير لنقل الركاب وبانقراض ركوب الحمير تنقرض صناعة السروج وتوابعها.

«وقد قل استعمال البلاط البلدي لتبليط أراضي الغرف وحل محله البلاط الافرنجي المصنوع من الاسمنت. فأخذت صناعة الحصير تنقرض.

وحلت الطلمبة الحديثة في استخراج المياه محل الساقية، والسقائين.
ولما كان الدباغ المصري يجهل طرق الدباغة الجديدة فقد أخذ ينقرض أمام زميله الأوروبي.
وصناعة النسيج اليدوي أصبحت تنحط وتحل محلها المنسوجات الأوروبية.
وقد بطلت أو كادت مهنة الصباغة بالنيلة بعد أن أصبحت الأقمشة ترد من الخارج مصبوغة بالصباغة الحديثة.
واستبدل الأهالي ملابسهم المزركشة الزاهية الألوان التي كان يخيطها لهم الخياطون بالملابس الأوروبية التي ترد جاهزة.
وكسدت صناعة الأحذية الحمراء الوطنية حتى صار المشايخ رغم انهم أكثر الأهالي تمسكاً بالقديم يلبسون أحذية أوروبية.
والمنجد العربي الذي كان يُرضي الجيل القديم رأى نفسه عاجزاً الآن عن إرضاء زبائن اليوم الذين يطلبون منه صنع كراسٍ ومقاعد وأرائك من طراز لويس الرابع عشر والخامس عشر.
وقد أصبح الاختلاف ظاهراً وواضحاً لكل من يقابل ويقارن بين مصر الآن، ومصر منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة؛ فقد كانت الشوارع في ذلك الوقت مزدحمة بمحلات الصناع من غزالين وحائكين وعقادين وصباغين وخيامين وصناعة وعطارين وقربية (لصناعة القرب التي كانت تملأ بالماء) وسرجية (الذين يعدون الجلود بعد دبغها للصناعة) وصانعي مناخل وأقفال (فقد كانت الأقفال في ذلك الوقت كبيرة وتصنع من الخشب ولها ذراع به سنون لفتحها).. وأمثاله وغيرهم.
فكل هذه المحلات التي كانت متجاورة وكثيرة قد قلت أو انقرضت وحلت محلها دكاكين صغيرة مليئة ببضائع أوروبية.. الخ.
أرأيت مدى النقلة التي كانت فيها البلاد في عهد جويدان.
في عصر كهذا يحدث للناس توتر ويتحرك عقلهم وتنتبه أذهانهم فرغم ما قد يبدو على العصر من هدوء ربما كان ذهولاً لما يحدث أو هروباً من الجديد أو اندفاعاً إليه كان هناك غليان في العقول والنفوس أنتج أفراداً

من المفكرين وأصحاب الرأي والأدباء والفنانين وغيرهم ولو أردت أن أعدد هؤلاء لاحتجت إلى مجلد ضخم؛ ولذا سأكتفي بالكلام عن بعض حوادث ورجال ذلك العهد الذين أثروا فيه اجتماعياً خاصة وان كتابنا الحاليين قد وفوا ذاك الزمان من الناحية السياسية بما لا يدع مجالاً لمزيد.

علي يوسف

في تلك الأيام ظهرت جريدة «المؤيد» وهي جريدة أصدرها الشيخ علي يوسف. وأهمية هذه الجريدة هي أنها من أولى الجرائد التي اهتمت بالأخبار أكثر من اهتمامها بالمهاترات والخلافات الشخصية من مدح وذم، وان كانت مع ذلك لم تخل من روح العصر.

وللشيخ علي يوسف هذا قصص تستحق التسجيل.

وأهم قصة صحفية حدثت للرجل هي حادثة سرقة البرقيات.

ففي عام ١٨٩٧ أرسل الإنجليز حملة إلى السودان بقيادة السردار البريطاني لقمع ثورة المهدي بالجزيرة وكان السردار يقود الجيش المصري والجنود المصريين المشتركين في الحملة، ومن هنا كان اهتمام الشعب والصحف بالأخبار.

ولكن من أين تأتي الأخبار في حالة الحرب، إما من مراسل حربي في الجبهة، وهذا ما لم تكن الصحف المصرية تقدر على تغطية تكاليفه، وإما من القيادة البريطانية في القاهرة وكبار رجال الحكومة ونظارة الحربية المصرية، وهذا هو المصدر الوحيد للصحف المصرية، ولكن هؤلاء كانوا لا يعرفون شيئاً أو بمعنى أصح لا يقدمون للسائلين وخاصة الصحفيين، غير كلام لا يخرج عن الانتصارات وعن عدم وجود خسائر وعن أن الحالة على ما يرام.. إلى آخر ما نعرفه عن البلاغات الرسمية أثناء المعارك.

وفجأة ظهرت جريدة المؤيد في عددها الصادر في ٢٨ يوليو عام ١٨٩٦ وقد نشرت مقالاً عن أحوال الجيش المصري على الحدود.

وجاء بالمقال أن التلغرافات الأخيرة الواردة من بلدة كوشة تفيد أن السردر شديد القلق بسبب انتشار وباء الكوليرا في نقط ومراكز

خطوط المواصلات وفي المعسكرات؛ وأنه قد أصيب من العساكر الخديوية أي المصريين في أسوان ٢٩ إصابة وتوفي منها ١٥ جندياً في بلدة كروسكو حدثت ٢٣ إصابة وتوفي ١٣، وفي بلدة حلفا بلغت الإصابات أشدها فقد بلغ عدد الجنود المصريين الذين أصابهم المرض ١٥٦ جندياً توفي منهم ٩٨. وانه رغم حدوث إصابات في بلدة سواردة بين الجنود إلا أنها لم تبلغ من الشدة ما بلغته الإصابات في الأهالي وخاصة الفارين اللاجئين من الجنوب هرباً من الحرب والذين توفي عدد كبير منهم.

وبسبب هذه الإصابات وبسبب تأخر القطارات التي تنقل المعدات والعتاد لقدم الوابورات «القاطرات» فان الهجوم على دنقلة قد تأخر مما جعل الدراويش (الثائرين السودانيين أتباع المهدي) يتحصنون في تلك البلدة.

وطبعاً فان نشر مثل هذه الأخبار والتفصيلات أثار هياجاً كبيراً سواء بين أفراد الشعب أو في وزارة الحربية وكانت تسمى نظارة.

وكانت المشكلة هي أن كل المعلومات التي نشرتها الجريدة صحيحة ومنقولة بالنص عن برقية أرسلها السردار باللغة الفرنسية إلى نظارة الحربية، ومعنى هذا أن هناك أحداً قد سرق نسخة من البرقية وسلمها للجريدة.

وبلغ الأمر من الهياج أن ناظر الحربية أمر بنقل ستة من موظفي الوزارة إلى الحدود، لا لأنهم ثبت ضدهم شيء، بل لمجرد أن البرقية تدوولت بين أيديهم وهي في مظروف مغلق.

ويحدثنا الدكتور محمود كامل المحامي والقصاص في كتابه أشهر القضايا المصرية عن هذه الحادثة فيوضح أن المؤيد عادت بعد ذلك ونشرت برقيات أخرى في نفس الموضوع مما مكن الجريدة من تغطية أنباء تلك الحرب، وأن الذي كشف السر هو جريدة المقطم وكانت تنافس المؤيد، وبين الجريدتين خصومة وسباب متبادل، وكان للمقطم مراسل في بلدة بيا أرسل إليها برقية في ٢٧ يوليو عام ١٨٩٦ بها أخبار خاصة بالجريدة، وسلمت البرقية للمقطم من مكتب تلغراف الأزبكية، وفوجئ صاحب المقطم بأن نفس البرقية قد نشرت في المؤيد رغم أن الشيخ علي يوسف ليس له مراسل ببلدة بيا. وتوجه الدكتور

فارس نمر صاحب المقطم إلى رئيس مكتب الأزبكية يشكو له ما حدث.

وكلف رئيس المكتب، وكان هو نفس المكتب الرئيسي الذي تصل إليه برقيات وزارة الحربية، أحد الموظفين بمراقبة زملائه.

وقدم الموظف تقريراً لرئيس المكتب بأنه رأى توفيق أفندي كيرلس أحد موظفي المكتب ينقل صورة برقية مرسلة من مراسل جريدة الديلى تلجراف الانجليزية بالقاهرة إلى جريدته ويخفيها بجيبه.

وفتش رئيس المكتب توفيق كيرلس وقبض عليه ونسخة البرقية بجيبه، والذي اتضح أنه على علاقة بالشيخ علي يوسف وانه ينقل له صوراً من البرقيات الهامة.

والمهم أن الشيخ علي يوسف وتوفيق كيرلس قدما للمحاكمة وحكم ابتدائياً بحبس توفيق كيرلس ثلاثة أشهر ولكن محكمة الجنح المستأنفة برأته بعد مرافعة المحاميين الهلباوي والحسيني وكانا من أشهر محامي ذلك العصر وأولهما كان أحد المدافعين عن المتهمين في قضية دنشواي فيما بعد.

وفي سنة ١٩٠٤ أراد علي يوسف أن يتزوج.. وعلي صحافي كبير له جريدة رائجة، ولاشك أن تقدم صاحب ورئيس تحرير جريدة يومية كبيرة اليوم بطلب الزواج من أية بنت سيجعلها تفرح ويجعل أهلها لا يترددون في قبوله زوجاً لابنتهم.

ولكن عهد علي يوسف كان غير ذلك فإذا كنا قد قرأنا في مذكرات جويدان مقدار عدم احترام الخديوي للكتب الأدبية واحتقاره لها، فما بالك برأي أهل ذلك الوقت في الصحف والصحفيين.

الحق أن كبراء ذلك العهد لم يكونوا ينظرون إلى الصحفيين إلا كطبقة غير لازمة للمجتمع، وكان الصحافي «جورنالجي»، والجورنالجي ليس شخصاً هاماً يحق له الزواج ببنات العائلات الكبيرة.. كما أن الصحافة كانت ناشئة، ونحن نعلم أن المحافظين يعارضون دائماً كل جديد ولا يعترفون بقيمته إلا بعد أن يفرض نفسه.

والمهم أن الشيخ علي تقدم لخطبة بنت إحدى الأسر الكبيرة في عهده هي الآنسة صفية التي يرجع أصل عائلتها إلى سلالة الحسين. ولم يوافق أبوها،

ولكنه بعد إلحاح بعض الكبراء والوزراء والأمراء الذين وسطهم علي يوسف اضطر إلى الموافقة وتمت الخطبة وقدم الشيخ المهر والنيشان أي الشبكة و...

ولكن يبدو أن الأب راجع نفسه في هذه الزيجة فانه أخذ يماطل في الزفاف لفترة طويلة رغبة منه في أن يتضايق العريس فيفسخ الخطبة. ولكن العريس كان مشاغباً فقد استطاع أن يقنع العروس صفية بواسطة بعض قريباتها بالهروب من بيت أبيها إلى منزل علي يوسف الذي أحضر المأذون وبعض الأصدقاء وأتم العقد... ثم نشر الخبر في اليوم التالي بجريدته حتى يضع الوالد أمام الأمر الواقع.

وكان حادثاً خطيراً وأسرع الأب إلى إبلاغ النيابة ضد الشيخ بأنه غرر بابنته، ولكن النيابة حفظت البلاغ لأن الزواج سليم والبنت بلغت سن الرشد.

واتجه الأب إلى القضاء فرفع دعوى أمام المحكمة الشرعية للتفريق بينهما وبطلان الزواج لعدم الكفاءة بين الزوجين.

ونظرت القضية في جلسة ٢٥ يوليو عام ١٩٠٤ وحكمت المحكمة مبدئياً وبصفة مستعجلة بالتفريق بين الزوجين لحين الفصل في الموضوع.

ورفضت صفية الذهاب إلى منزل والدها تنفيذاً للحكم، وحتى لا تثار المشاكل فان الشيخ علي يوسف قد نقل زوجته إلى بيت محايد هو بيت الشيخ الرافعي لتعيش فيه بعيداً عنه وعن والدها.

ولكن القاضي رفض هذا الحل واعتبره تحدياً للمحكمة وأوقف القضية لحين تنفيذ حكم المحكمة بذهاب صفية إلى بيت أبيها.

والمهم أن القاضي أصدر حكمه بالطلاق لعدم التكافؤ لأن الشيخ علي من أصل فقير غير معروف وأن الثراء لا يزيل عنه أصله، ولأنه يعمل في مهنة محرمة شرعاً وهي الصحافة لأنها مهنة تقوم على الجاسوسية والإشاعة وكشف الأسرار وهذا ما نهى عنه الشرع!

ومهما يكن فانه بعد صدور الحكم واسترداد الأب لكرامته التي أهينت بهروب ابنته فان الوالد أبدى سماحة وأعاد تزويج علي يوسف بابنته صفية بعقد جديد.

ابراهيم المويلحي وابنه محمد

ومن أدباء تلك الفترة وصحفييها ابراهيم المويلحي الذي ولد سنة ١٨٤٦ وتوفي عام ١٩٠٦ وأنشأ مجلة «مصباح الشرق» تلك المجلة الساخرة التي كان الناس ينتظرونها مساء كل خميس لما فيها من صور كاريكاتورية ساخرة، وكان ابراهيم قد عاش في الآستانة عشر سنوات باستدعاء من السلطان عبد الحميد فلما عاد إلى مصر ألف كتاباً عنوانه: «ما هنالك».

وفي كتابه هذا سخر من البلاط العثماني ومن السلطان عبد الحميد الذي استولى الدجالون على عقله.

وكان هناك دجال اسمه «أبو الهدى الصيادي» أحد أربعة دجالين أوهموا السلطان أنهم يعلمون الغيب وأن الأمة العربية بين أيديهم وأنهم قادرون على أن يعيدوا له لقب الخلافة.

وكان الشيخ أبو الهدى قد ذهب إلى السلطان ليبلغه رؤيا رآها في منامه، ورفض أن يتكلم مع السلطان الذي لا يعرف غير التركية بينما الشيخ لا يعرف غير العربية، بواسطة مترجم، لأنه أمر أن يبلغ الرؤيا شفاهاً وللسلطان شخصياً دون وساطة.. وخرج.. وبعد يومين عاد الشيخ ووجهه متهلل وقال انه سيبلغ الرؤيا الآن بنفسه للسلطان لأنه يتكلم التركية.. فسألوه كيف أمكنه تعلم اللغة التركية في يومين فأجاب بأنه جاءه في المنام كبير المقام، ومَلِسَ على فمه فتكلم التركية، فلما سمع السلطان ذلك انفرد بالرجل، وبعدها أصبح الشيخ أثيراً عنده.

الابن

ولد ابنه محمد المويلحي عام ١٨٦٨ وتوفي عام ١٩٣٠ وعمل مع والده في «المصباح» وظهر كمؤلف قصصي متمكن فألف «فترة من الزمان» عام ١٩٠٧ واتبعها «بحديث عيسى بن هشام».

وتعتبر رواية: «حديث عيسى بن هشام» حلقة وسيطة في القصة المصرية والعربية فلم تكن القصص بالطريقة الحديثة الأوروبية معروفة لدى العرب أو المصريين فقد كان القصاص يكتب قصصه بطريقة المقامات كمقامات الهمذاني

والحريري بينما القاص الشعبي يكتبها أو يقولها بطريقة الرواة كسيرة عنترة وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة فهذه كلها رغم أنها قصص وروايات إلا أنها تخرج من موضوع لتدخل على آخر وتعتمد على التشويق الذي يقدمه «الأدباتي» الراوي الذي يلقيها مسلسلة بالمقاهي معتمداً على ربابته، وكانت المقاهي في ذلك العهد تتنافس في استقدام الرواة، ويذهب المصريون إليها لشرب النارجيلة «الشيشة» والشاي والاستماع فهي نوع من مسرح المقهى.

أما القضية والرواية التي تعتمد على موضوع وتحليل وشخصيات ولها بداية وذروة ونهاية فهذه لم تكن قد عرفت بعد.

ثم ظهر عيسى بن هشام مزيج من الأدب الحديث الذي يروي قصة لها حبكة ويضمها موضوع وفي نفس الوقت كتبت بتلك الطريقة التي كتبت بها المقامات في بعض أجزائها حيث نجد الكلام المسجوع وأنواع الجناس ومراعاة الفواصل إلى آخر المحسنات التي تعطي للكلام رنيناً أكثر مما تعطي أفكاراً، ولكن الكاتب في حيرته بين المقامة والرواية قدم لنا الرواية المصرية الأولى حقاً.

وأهم ما في الرواية هو ما بها من مقارنات تعرفنا على نوع الحياة في هذا العهد، عهد جويدان، والعهود السابقة كأيام جدها محمد علي.

والرواية تقص قصة عيسى بن هشام «الراوي» الذي كان يسير بين القبور ففوجئ بقبر يفتح ويخرج منه رجل طويل القامة مهيب يسأله بعظمة عن اسمه وعمله، فأخبره أن اسمه عيسى وأنه يعمل كاتباً وهنا نجد مفارقة في أن الرجل لا يعرف شيئاً عن مهنة الكاتب إلا أنه الشخص الذي يؤجر لكتابة الرسائل أو العرضحالجي كما نسميه اليوم، أما الكاتب كصحفي ومؤلف فهذه مهنة لم يسمع بها المرحوم.

ويطلب الرجل من عيسى أن يحضر له ملابس وحصاناً وكان الخارج من القبر هو أحمد باشا المنيكلي الذي تعجب لأن عيسى لا يعرفه ويجهل بيته ويحاول عيسى أن يفهم الرجل أن البيوت في مصر أصبحت لها عناوين فلم تعد تعرف بأسماء أصحابها، بل بأسماء شوارعها وأرقامها.

ويستغرب الباشا لأنه يعرف أن الأرقام هي لتمييز عساكر النظام وأوامر الحكام وليست للبيوت.

وأعطاه عيسى رداءه وهو يتعجب ويقول في نفسه:

- كنت أظن أن سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطرق فإذا هو أيضاً من سكان القبور.

وقبل الباشا الرداء متضرراً قائلاً أنه كان أحياناً يلبس مثل هذا الرداء وهو يخرج متنكراً مع ابراهيم باشا لاستطلاع أحوال الرعية ويسأل كيف سيدخلون المدينة وهم في الليل وهو لا يعرف كلمة سر الليل التي لا تفتح أبواب المدينة ليلاً إلا بذكرها.

وعيسى لم يسمع بمثل هذا النظام.

فيخبره الباشا بأنها كلمة تصدر كل ليلة من القلعة إلى الضباط في القرة قولات (أقسام الشرطة) وحراس الأبواب، وتتغير كل ليلة فهي يوماً «عدس» وليلة «خضار» وأخرى «حمام أو فراخ».

ويفهمه عيسى أنه لا داعي لهذه الكلمة أو غيرها وأن أبواب المدينة أصبحت مفتوحة لا تغلق.

وسار الاثنان إلى القلعة.. وسار خلفهما مكاري بحماره، والمكاري هو رجل يؤجر الحمير للركوب، فقد كانت تلك وسيلة الانتقال داخل المدينة في ذلك الوقت مثلها مثل العربات الكوبيل (ذات العجلتين) أو الغيتون (ذات الأربع عجلات) التي يستعملها الأغنياء، وكانت للحمير مواقف تقف بها، وأحواض داخل المدينة تشرب منها، وهي أحواض أنشأها الفرنسيون أيام نابليون لسقي خيولهم فأصبحت الأماكن التي بها الأحواض تسمى الفرنساوي.

المهم أن المكاري سار بحماره خلفهما ثم أمسك بذيل الباشا وهو يقول له:

- اركب يا أفندي، لقد عطلتني وأنا أسير وراءك من الصباح.

وصدم الباشا فلا يليق بمركزه أن يركب الحمار، وصمم المكاري على أن الباشا أشار إليه وهو يكلم صاحبه وأنه سار خلفه حسب الإشارة ليركب معه، فان لم يركب فعليه أن يدفع أجرته.

وقامت مشادة بين الباشا والمكاري، وأمر الباشا عيسى أن يضرب المكاري، كما لو كان عيسى أحد عساكره فأفهمه عيسى أن الضرب جنحة

والقـتل جناية، ولكن البـاشـا لم يـستـمع لكلام صـاحـبه وأمسـك بالمكاري وضربـه.. وصرخ الرجل منادياً البوليس ويسأل البـاشـا عن مـعنى كلمـة بوليس، فيفهمه عيسى أن معناها «القواس» (أي حامل القوس).

واقتيد الرجل إلى قسم البوليس حيث اصطدم بأحد العسـاكر ووقع فوقه فـاعتبر الأمر اعتـداء على ممثل السلطة وحرر للباشـا محضران وأخذت بصمـاته، ثم طلب منه احضار ضامن يضمنه فخرج عيسى وأحضر شيخ الحارة ليضمن الباشا معه.

وحضر مفتش للقسم فأراد الباشا أن يشتكي له، فما كان من المفتش إلا أن أمر بإبقاء الرجل للصباح حتى يكشف عن سوابقه ويرسل للنيابة.

وتركه عيـسى وعـاد في الصبـاح ليجـده قـد أرسل لقلم تحـقـيق الشخصية لفحص سوابقه، ثم إلى النيابة، ولم يستطع الباشا أن يفهم أن النيابة تنوب عن الأمة كلها في تطبيق القانون فمعلوماته في عهده أنه لابد أن يكون هناك أمـيـر عظيم يولي نـواباً في ولاية الدمـاء والأعـراض والأموال، ويحاول عيسى أن يفهمه أن وكيل النيابة هو متخصص حصل على شـهادة تؤهله للعمل في هذه المهنة خلاف عهد الباشا الذي كـانت الوظائف فيه تعطى لأبناء الأغنياء والتابعين.

وقدمت القضية إلى المحاكمة.

ويدور حوار عن المحاكم تذكر فيه المحاكم المختلطة وهذه المحاكم كانت نوعاً عجيباً في ذلك العهد، فان كل قضية يكون فيها خصم أو طرف من الأطراف غير مصري تنظر أمام تلك المحاكم أو أمام المحاكم القنصلية التي كانت مختصة بالجنح التي تقع من رعاياها ضد المصريين أو ضد بعضهم البعض.

والحق أن هذه المحاكم كانت سبة في جبين مصر لم تتخلص منها إلا في عام ١٩٤٨ بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية وأصبح القضاء الوطني هو المختص بكل المنازعات.

ونعود للباشا فان المحكمة بعد نظر الدعوى وسماع الدفاع حكمت على الرجل بالحبس سنة ونصفاً والغرامة والمصاريف، وقرر المحامي الاستئناف.

وسمع صوت بائع الجرائد ينادي:

«المؤيد والمقطم والأهرام ومصر» الأربعة بقرش..

ودخل الباشا في حديث مع عيسى عن الجرائد، فأخذ عيسى يشرحها له لأنها لم تكن موجودة في عهده، ويشرح الباشا أن في عهده كانت هناك غازيته واحدة بالتركية اسمها «روزنامة وقائع» وأخرى بالعربية اسمها «الوقائع المصرية» تدور فيها أسماء المدائح والتهاني وأخبار انتقال الركب العالي.

وفي محكمة الاستئناف كانت جريدة «مصباح الشرق» قد نشرت تحقيقاً عن المكارية الذين يعترضون الناس ويلحون عليهم بسوء أدب وقلة تربية واستعان المحامي بهذا التحقيق وصدر الحكم بالبراءة.

وتبدأ قضية أخرى وهي مطالبة المحامي بأتعابه، والباشا لا يملك شيئاً رغم أنه كانت لديه كنوز وكنوز في زمانه وأيامه.

وثارت مشكلة أن الباشا لا يجد أهله ولا ماله، ثم تذكر أن له وقفا، وبحث بمعاونة عيسى عن الوقف حتى عثرا على دكان عطار بها شيخ عجوز نظر إليه الباشا وناداه فهب الرجل واقفاً.. وسأله الباشا:

- ألست أنت أحمد آغا الركبدار، ألا تعرفني.

وعرفه الرجل بعد أن كشف له الباشا عن علامة من أثر اللعب بالجريد في قدمه. وسأله الباشا عن ذريته فقال الرجل إنه لم يبق منها غير حفيد ترك الثروة لأفرنجي (أجنبي) يديرها وأنه يعيش في الأويتل أي اللوكاندة، ولم يفهم الباشا فأفهمه عيسى أنه بيت ينزل به الغرباء نظير أجر للمبيت كالخان في أيام الباشا.

وظن الباشا أن الولد أصابه الفقر، ولكن عيسى أخبره أن نزلاء الفنادق الآن هم الأغنياء، وأخذ يشرح له نظام الفنادق والمضيفين والطهاة.

وقادهم البيطار (العطار) إلى الفندق حيث كان الحفيد مع خلانه وأصدقائه فضحكوا منهم وطردوهم.

وسأل الباشا البيطار عن أصدقائه القدامى وهل بقي منهم أحد فأجابه فلان وفلان وفلان.. وذهب بهما إلى دار أحد هؤلاء الأمراء الذي اعتزل وتفرغ للتعبد والحياة الروحية.

ودخلوا عليه ومعه جماعة من أصحابه يتحدثون فاستمعوا إليهم يذكرون أيام محمد علي ولاظ أوغلى تابعه الذي دبر مذبحة المماليك، وعن صيحة محمد علي المزعجة التي لم تكن تفارقه فكان يزأر في مجلسة كزئير الأسد حتى إنه صاح تلك الصيحة يوماً وهو جالس أمام رسام أجنبي كان يرسم له صورته فسقط الرسام ميتاً.

وإن محمد علي كان كيِّساً في إدارته للأمور حتى إنه علم يوماً أن أحد المديرين يغالي في جمع الأموال فنادى المدير وأمسك برأسه وأخذ ينزع شعرة من رأسه وأخرى من قفاه وثالثة من حاجبه.. الخ.. ولم يكن المدير يتألم إلا ألماً خفيفاً، ثم فجأة نزع محمد علي من الرجل خصلة شعر دفعة واحدة فنبع منها الدم وصرخ المدير، فقال له محمد علي:

- هكذا تكون معاملة الرعية في جباية الأموال، تأخذ درهماً من هنا، وآخر من هناك فيخف الوقع على الأهالي ولا يحسون بالألم الشديد.

ومرة عين محمد علي حسن باشا كويلي حاكماً على إحدى الولايات التي فتحها فخاف الرجل واعتذر لجهله اللغة العربية، فقال له محمد علي:

- يكفي أن تعرف كلمتين اثنتين هما: «فلوس» و«كرباج».

وتنبه الرجل إلى عيسى وصحبه فسألوهم ماذا يريدون فأفهموهم بخبرهم، ودار حديث خرافة عن الذين عادوا للحياة، ولم يطق الباشا الحديث فهب يعارضهم وينصحهم!.

ثم أخذوا يسألونه أسئلة سخيفة عن ظلام القبر وعن الملكين وهل حاسباه باللغة العربية أم التركية أم السريانية، لأن هناك خلافاً بين العلماء في هذا الشأن.

والمهم أن الباشا وعيسى خرجوا من عندهم لأن الباشا لم يعجبه حوارهم وخرج خلفهم تاجر كان قد دخل أثناء الحديث يبيعهم قطيفة، وأعطى الباشا كيس نقود لأنه عرفه.

وذهبوا إلى محام شرعي ليرفع قضية للباشا يسترد بها الوقف، وطلب المحامي توكيلاً، وهو شيء لم يسمع به الباشا فقال له إنه شهادة شاهدين أمام المحكمة بأن فلان ابن فلان قد وكل فلان ابن فلان في

المرافعات والمدافعات.. الخ.. ثم بعد ذلك تستحضر حجة الوقف أو صورة منها من السجل، ويعقب ذلك القضية.

ويصف الكاتب السجلات وكيف تاها فيها للحصول على صورة الوقفية.

ثم ذهبوا إلى المحكمة ويصف عيسى يوماً بها.

ثم يصف بائعاً للكتب لديه من الكتب القديمة ما لا يقدر بمال مثل: «حل الرموز لفتح الكنوز» و«أصول المراسم لفك الطلاسم» و«حسن إرشاد الناس في استخراج الذهب والنحاس» و«القول المأثور في تأثير البخور» و«قلائد اللؤلؤ والمرجان في استحضار الجان» و«خير المواقيت لرؤية العفاريت».

وذهبوا لإعلان الحفيد بالدعوى في القصر، وكان يتهرب من الدائنين المختلفين من الصيرفي إلى الخياط والإسكافي والحلاق.

وطالت القضية ومرض الباشا ودار به عيسى على الأطباء الذين ألزمه بعضهم بشراء الدواء من صيدليات بعينها خوف الغش.. وبعد مدة عثر على طبيب عرف أن داءه هو قلق نفسي وأن عليه تغيير الجو فسافرا إلى الاسكندرية.

وجاء ذكر لوباء الطاعون فقص الباشا على عيسى كيف حصد هذا المرض الناس أيام محمد علي سنة ١٨٨٤ فحكى له عيسى عن تقدم الطب وعن الميكروبات والميكروسكوب الذي ترى به هذه الدقائق المتناهية الصغر.

واعتزل عيسى مع الباشا الذي لبى به يتذاكران ماضي الباشا وما وصلت إليه الحال الحاضرة من ترف في الفنون وكثرة المطابع والكتب، وانتشار وسائل الزينة وانتشار العلوم ووسائل الانتقال من مركبات خيول أو بخار كالقطارات، ثم تكالب العلماء على اقتناء المال والأراضي والاشتغال بالتجارة، وعن التجار الذين لجهلهم وخمولهم استطاع الأجانب أن يستحوذوا بدلهم بتجارة البلد.

ثم أخذ عيسى الرجل إلى أحد الأفراح حيث صرف الداعي المبالغ الضخمة على الحفل والموائد، وعلى الطرب والغناء، وينتقد الباشا الغناء والموسيقى، وتدور مناقشة عن فائدة الموسيقى في الشفاء من الأمراض، وعن آلات الرسم والتصوير دون رسام.

ثم مقابلتهما لأحد العمد من الخلعاء في حديقة الأزبكية وذهابه إلى البار وإلى البورصة للمضاربة وإلى مكان للعب ثم إلى المطعم الذي لم يفهم الباشا شيئاً من الأطعمة التي به، ثم ذهاب العمدة إلى المرقص.. وانتهى الأمر بالعمدة إلى رهن أرضه.

وانتهى الكتاب بنقاش عن فائدة المدنية الغربية من عدمه.. ولكن الكاتب ترك القضية مفتوحة ولم ينه القصة نهاية مغلقة تدل على انتصار أي العصرين، الماضي أم الحاضر...

إبراهيم المويلحي وابنه محمد
عام الكف وعام الكفء

من طرائف ذلك العهد ما حدث بين الصحيفتين «المؤيد» و«مصباح الشرق» من خصام وسجال دام سنيناً، وقد حدث أن المويلحي الابن مؤلف عيسى بن هشام قد تشاجر يوماً مع شاب من الأثرياء المتحذلقين في مكان عام، وما كان من الشاب واسمه «محمد نشأت» إلا أن ضرب محمد المويلحي بالكف.

وكانت لطمة طيرتها الأخبار والأنباء وزادت فيها ونشر علي يوسف الخبر في جريدته «المؤيد» بشماتة وسخرية وأطلق على السنة التي وقع فيها الحادث وهي عام ١٩٠٢ اسم «عام الكف».

وفي ذلك الوقت كان الشاعر الكبير اسماعيل صبري الذي ولد عام ١٨٥٥ وتوفي عام ١٩٢٢ واشتهر بتورياته المعروفة التي أذكر منها بيته:

طرقتُ البـــاب حـــتى كلَّ مـــتني
فلمـــا كلَّ مـــتني كلمـــتني[1]

والتورية هنا في أنه طرق الباب حتى كل أي تعب متنه؛ أي ظهره فلما تعب ظهره كلمته.

---

١ - وتتمة هذه التورية هي البيت التالي:

فقالت لي: أيا اسماعيلُ صبراً   فقلتُ لها: يا أسما، عيلَ صبري.

والمهم أن هذا الشاعر كان من أنصار الشيخ علي يوسف فألف قصيدة منها:

أعـــرني يابن ابراهيم صـــدغـــا

أخـــوض به غـــمـــارَ الصـــافـــعـــينا

على أن المويلحي الأب لم يترك الفرصة تفوت فانتهز فرصة قضية طلاق علي يوسف من صفية عام ١٩٠٤ وسمى العام الذي رفعت فيه القضية «عام الكفء» سخرية من علي يوسف الذي ثبت بحكم القضاء أنه ليس كفؤاً لمصاهرة العائلات الكبيرة.

رئيس المجلس التشريعي يشتري ثلاث جاريات

كان علي باشا شريف رئيساً للمجلس التشريعي في أول عهد الخديوي عباس.

وفي أغسطس عام ١٨٩٤ حضر إلى مصر عن طريق الواحات خمسة تجار رقيق وأقاموا بالأهرام ومعهم ست جاريات سودانيات بضاعة حاضرة جاهزة للبيع.

ورغم أن الرق قد ألغيَ من كل بلاد العالم بموجب اتفاقيتين دوليتين هما اتفاقية برلين سنة ١٨٥٥ واتفاقية بروكسل عام ١٨٩٠، كما أن الخديوي اسماعيل قد أصدر قانوناً بإلغاء الرقيق في مصر عام ١٨٦٦، إلا أن الأسر المصرية في ذلك الحين بما فيهم أسرة الخديوي كانوا يحتفظون ببعض الجواري ويشترونهن ويستخدمونهن في قصورهم، ولهذا لم يكن غريباً أن يحضر تاجر الرقيق ببضاعته ويعرضها للبيع دون خوف كبير.

والمهم أن التجار قد اتصلوا بعلي باشا شريف رئيس المجلس وعرضوا عليه بضاعتهم فانتقى ثلاث جاريات منهن اشتراهن وبيعت الجاريات الثلاث الأخريات إلى الدكتور عبد الحميد بك شافعي الذي احتفظ بواحدة وأرسل واحدة للشواربي باشا صاحب الشارع المعروف باسمه في القاهرة حالياً وأرسل واحدة أخرى إلى منزل حسين باشا واصف مدير مديرية أسيوط.

وفي ذلك الوقت كانت هناك مصلحة اسمها مصلحة الرقيق أنشئت لرعاية شؤونهن وبحث أحوالهن وما استتبع تطبيق قانون إلغاء الرقيق من مشاكل واجراءات.

ونمى إلى علم ضابط هذه المصلحة بمنطقة الأهرام اليوزباشي محمد ماهر ما حدث فقام بضبط القافلة، وقبض على أربعة من النخاسين (تجار الرقيق) وهرب الخامس.

وتوجه الضابط إلى منزل الدكتور الشافعي الذي اعترف بشراء جارية وإرسال الاثنتين الأخريين إلى منزليْ الشواربي باشا وواصف باشا.

وكان رئيس المصلحة ضابطاً إنجليزياً اسمه شيفر بك فلما رفع إليه تقرير بما حدث وبأن الضابط المصري لم يستطع سؤال شريف باشا لحصانته البرلمانية أرسل شيفر يستدعي الباشا.

ولما وصل الباشا لم يسمح له الحاجب بالدخول بل أوقفه بالباب حتى يستدعيه المدير كأي متهم، وطلبه المدير بعد فترة طويلة.

ثم وجه له شيفر تهمة الاشتراك في الاتجار بالرقيق، واحتج الباشا بمركزه وطلب السماح له بالاتصال بالخديوي أو الابراق له فرفض المدير.

وكانت الامتيازات الأجنبية موجودة وقتها فتحامى الباشا بها قائلاً إنه رعية ايطالية وليس للمدير أن يسأله في غير حضور القنصل الايطالي، وهنا أرسله شيفر مخفوراً إلى الإدارة الإنجليزية ليتصرف رؤساؤه.

وهناك تركوه فترة أخرى قبل أن يسمحوا له بإرسال برقية استنجاد إلى الخديوي.

واجتمع مجلس الوزراء المصري برئاسة نوبار باشا لبحث الموضوع ثم أمر بتشكيل لجنة لتقرير هل ينطبق قانون إلغاء الرق على من يشتري رقيقاً، أم أن العقوبة مقصورة على الاتجار في الرقيق ولا تمتد إلى عملية الشراء.

وشكلت محكمة عسكرية في ٤ سبتمبر عام ١٨٩٤ قدم إليها النخاسون الأربعة والباشوات المشترون ما عدا شريف باشا حيث أرسلوا

إلى القنصلية الايطالية يسألونها هل هو ايطالي حقاً كما يدعي أم لا؟

واستحضرت الجواري وسئلن في المحكمة، ويبدو أن محامي الشواربي أو أسرته قد أغروا وأثروا على الجارية زنوبة التي اشتراها لأنها حين طلب منها تعيين الباشا الذي بيعت له ادعت أنها لا تراه بقاعة الجلسة، فلما سئلت عن أوصافه اختلط عليها الأمر فمرة قالت إن له لحية فلما سئلت إن كان بلحيته شيب ترددت ثم قررت أنه لم تكن له لحية.

واستمرت المحاكمة أسبوعاً، وسمعت محاكمات الدفاع الذي أخذ يثبت أن الباشوات ذوو سمعة حسنة وأن ما حدث لا يعتبر بيعاً ولا تنطبق عليه شروط البيع وأن القانون يقصر العقاب على الاتجار في الرقيق دون الشراء، وتعجب الدفاع لأن الجاريات قد أصبحن حرات تسمع شهادتهن بينما الباشوات أصبحوا متهمين إلى غير هذا الكلام الإنشائي.

وفي النهاية صدر الحكم في ١٣ سبتمبر بالحبس مع الشغل على الدكتور عبد الحميد الشافعي وببراءة الجاريتين بينما ثبت على الدكتور الشافعي تهمة شراء ودفع ثمن الجاريات الثلاث وإرسال اثنتين إلى منزلي المتهمين الآخرين.

وبقي المتهم الرابع شريف باشا، ويظهر أن الحكومة الايطالية استنكرت التهمة لهذا بعثت قنصليتها بالقاهرة إلى السلطات المصرية تخطرها بأنه وان كان الرجل قد قيد نفسه بدفاترها كرعية ايطالية إلا أنه لم يدفع الاشتراكات المفروضة على الرعايا الايطاليين منذ عدة سنين ولذا يعتبر أنه ليس من رعاياها ولا في حمايتها وأنه قد تنازل بفعله هذا عن حمايتها.

وموضوع الحماية هذا كان أحد مساوئ نظام الامتيازات التي كان السلطان قد منحها للأجانب في مصر، ولما كان كل من يقيد في دفاتر إحدى القنصليات الأجنبية كرعية من رعاياها له حماية خاصة ولا يحاكم أو يحقق معه إلا أمام محاكم القنصلية أو المحاكم المختلطة، فان أغنياء المصريين كانوا ينتقون دولة أوروبية يحتمون بها مقابل مبالغ يدفعونها لها، وكانت القنصليات الأجنبية في مصر تتخذ من هذه الامتيازات مجالاً للكسب والتجارة.

المهم أن شريف باشا لما علم بذلك رفع استقالته إلى الخديوي من رئاسة المجلس التشريعي بسبب مرضه واعتكف في بيته.
وقبلت استقالته وأرسل السردار طبيبين انجليزيين للكشف عن الباشا فقررا أنه فعلاً مصاب بمرض في القلب وانيميا.
وعلى أساس من هذا التقرير طلب من الباشا كتابة اعتراف وطلب العفو عنه ففعل، وأصدر الخديوي أمراً بالعفو عنه.

المسرح والغناء في عهد جويدان

يعتبر جورج أبيض أهم مسرحي أنتجته تلك الفترة، فهذا الممثل الذي ولد في بيروت عام ١٨٨٠ وحضر إلى مصر للعمل بمسارحها إرضاء لهوايته وأعجب به الخديوي عباس فأوفده إلى باريس في بعثة لدراسة التمثيل على نفقته عام ١٩٠٤ وعاد إلى مصر بعد ست سنوات ليقدم رواياته باللغة الفرنسية كان من أكبر أعمدة التراجيديا.
وقد قدم رواية الملك أوديب لسوفوكليس وأوديب هذا هو الملك الذي تزوج أمه دون أن يعرف.
ومثل عطيل شكسبير مأساة الغيور الذي قتل زوجته لمجرد شك.
على أن أشهر رواياته كانت لويس الحادي عشر التي ألفها لافيني.
ولويس هذا تآمر وهو ولي العهد على قتل والده واعتلى عرش فرنسا عام ١٤٢٣ وعاش حياته في مؤامرات وكان يخشى على نفسه من الاغتيال فحبس نفسه في قلعة بليسيه لي تور حتى مات عام ١٤٨٢.
ثم مثل جورج نفس رواياته الفرنسية بالعربية، واشتهر جورج بأدوار التراجيديا وفشل حين مثل كوميديات موليير التي ترجمها ومصرها محمد عثمان جلال كالشيخ متلوف ومدرسة النساء وغيرها.
ثم اشترك مع سلامة حجازي في المسرح الغنائي وكونا فرقة.
ومن مغني ذلك العهد كان يوسف المنيلاوي الذي ولد بالقاهرة عام ١٨٥٠ وتوفي عام ١٩١١ وأعجب به السلطان عبد الحميد فقربه إليه وسجلت له عدة أسطوانات قليلة عام ١٩٠٨ منها «كل من يعشق

جميل» وأنت فريد الحسن. وبسبب قربه للسلطان عبد الحميد كتبت شركة أسطوانات عمر أفندي، على أسطواناته «سمع الملوك».

ومحمد عثمان الملحن والمغني الذي نظم له الشاعر اسماعيل صبري أغنية:

قــــدك أمــــيــــر الأغــــصــــان
مــن غــــــيــــــر مكــابـر
وردك خـــــــــدك سـلـطـان
عــــــلــــــى الأزهــــــار
والحـب كـلـه أشــــجـــــان
يــا قــلــب حـــــــــاذر

ومحمد عثمان ولد عام ١٨٥٥ وتوفي عام ١٩٠٠ وكان قد سافر مع عبده الحامولي إلى الآستانة فسجنهما السلطان عبد الحميد بسبب أغنية غناها الحامولي اعتبرها السلطان سياسية ومطلعها:

عــــشــنا وشــــفــنا سـنين
ومن عـــاش يشــوف العــجب

ومرض عثمان وعبده الحامولي بالسل وماتا به.

ولا أستطيع أن أعدد مغني وفناني ذلك العهد فقد كانوا كثيرين حيث ازدهر فيه الغناء بأنواعه الفردي والمسرحي والأوبرالي وتوارثنا عنه عدة أغان لازالت على الألسنة؛ منها:

يا قــمــرة يا قــمــرة يا قــمــورة
يا مــحنى ديل العــصــفــورة
ويـــا بــنـــات اســكــنــدريــة
مــشــيكم على البــحــر غــيــه
تلبـــســوا الكشــمــيــر بتلى
والشـــفـــايف سكـرية

كما ازدهر عالم العوالم والمقصود بهن قائدات فرق غناء ورقص مخصصة للاستئجار في الحفلات والأفراح كبمبة كشر التي توفيت

عام ١٩١٧ وأشهر أغانيها «الحنة الحنة يا قطر الندى» وأمينة شخلع التي توفيت عام ١٩٢٤ وأشهر أغانيها «قولوا لعين الشمس ما تحماش».

ولا يمكن أن ننسى منيرة المهدية ومسرحها.

وأهم حدث في حياة منيرة هو أنه عندما خلع الإنجليز الخديوي عباس زوج جويدان عن العرش ومنعوا مجلس الوزراء المصري من الاجتماع لبحث الموقف فلم يجد رئيس الوزراء حسين باشا رشدي غير أن يجمع مجلسه في بيت منيرة المهدية.

وكان المسرح المصري مزدهراً في عهد عباس والفرق كثيرة وقد تجمعت كلها في حي الأزبكية وكانت المسارح قليلة وحكومية وهي مسرح الكوميدي ومسرح الأزبكية ومسرح قصر النيل والفرق مضطرة للعمل بالمقاهي.

وفي عام ١٨٩٢ بنت فرقة سليمان الفرداحي أول مسرح أهلي خاص بها وفي سنة ١٨٩٦ أقيم مسرح لفرقة أبو خليل القباني بالعتبة وبنى بالخشب واحترق سنة ١٩٠٠ ثم بنيت دار التمثيل العربي في حي وش البركة.

وفي عام ١٩١٠ بنى الخديوي عباس شارعاً في أرض كان يملكها وبه صالات ومسارح وكازينوهات ذلك هو شارع عماد الدين فانتقلت الفرق للاشتغال بمسارحه كمسرح عباس ومسرح بريتانيا وكازينو دي بازي.. الخ.

المنفلوطي والصاعقة:

ومن أدباء العصر المنفلوطي الذي ولد سنة ١٨٧٦ وتوفي عام ١٩٢٤ ببلدة منفلوط وتعلم بالأزهر وعمل في تحرير جريدة «المؤيد» وله أسلوب أدبي صحفي تحرر فيه بعض الشيء من المحسنات البلاغية وجمع مقالاته في كتاب «النظرات» و«العبرات». وقد كتب بأسلوبه روايات عدة ترجمت له من

الفرنسية فأعاد صياغتها ولقيت نجاحاً كبيراً في وقتها كرواية «الشاعر» و«في سبيل التاج» و«مجدولين».

على أن أهم حادث في حياته هو القصيدة التي ألفها ضد الخديوي عباس وسجن بسببها.

وفي سنة ١٨٩٧ عاد الخديوي من العاصمة الصيفية وهي الاسكندرية إلى العاصمة الشتوية وهي القاهرة وفي ذلك الوقت كانت الحكومة المصرية بوزرائها ومكاتبهم وكبار موظفيهم تنتقل إلى الاسكندرية فترة الصيف من أشهر مايو إلى آخر سبتمبر ثم تعود إلى القاهرة من أول أكتوبر كل عام.

والمهم أنه كانت هناك مجلة أدبية اسمها «الصاعقة» يصدرها أسبوعياً صحفي وأديب اسمه «محمد فؤاد».

وظهر عدد المجلة وفي صفحته الأولى قصيدة عنوانها:

«تهنئة مرفوعة إلى عباس حلمي لمناسبة عودته للقاهرة».

وكان مطلع القصيدة:

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وإن طال المدى سيبيد

وأقتطف منها:

تذكرنا رؤياكَ أيام أُنزلت
علينا خطوب من جدودك سودُ

رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
مصوّبُ سهم بالبلاء سديد

فلما توليتم طغيتم وهكذا
إذا ما غدا عباسُ وهو عميد

كأني بقصر الملك أصبح بائدا
من الظلم والظلم المبينُ مبيد

أعباسُ ترجو أن تكون خليفة
كما ودّ آباء ورام جدود

فــيــا ليت دنيــانا تزول وليــتنا

نـكون بـبطـن الأرض حين تـســـــودُ

واهتزت مصر للقصيدة وقامت قيامة القصر، وأصدر ناظر الحقانية أمراً إلى النيابة باعتقال صاحب الجريدة والتحقيق معه.

واعتقل أحمد فؤاد فقرر أول الأمر أنه ناظم القصيدة وأنه سيطبعها مرة ومرات لتنشر بين الناس، وان كان يأسف على شيء فهو أسفه على أن عدد المجلة تأخر في الطبع ولم يظهر في نفس اليوم الذي عاد فيه الخديوي إلى القاهرة.

ثم عاد أحمد فؤاد وغير أقواله فقرر أن علي يوسف صاحب المؤيد أعطاه نسخة القصيدة وطلب منه نشرها، ودفع له مالاً مقابل ذلك على أن يقول إذا سئل عنها إن صاحب المقطم والشيخ البكري هما اللذان أعطياها له.

وأمر وكيل النيابة السيد/يوسف سليمان إزاء هذا التضارب في أقوال الرجل باستدعاء صاحب المطبعة التي طبع فيها العدد.

وقال صاحب المطبعة إن أحمد فؤاد أحضر القصيدة وكان يرافقه السيد/مصطفى لطفي المنفلوطي.

وقبض على المنفلوطي الذي اعترف بأنه ناظم القصيدة ولكنه لم يكن ينوي نشرها.

وذاعت القصيدة بمصر وتدوولت لدرجة أن طلبة المدارس أخذوا ينسخونها باليد ويبيعونها لبعضهم وغيرهم.

وكان هناك صحفي اسمه سليم سركيس يصدر مجلة اسمها «المشير» كلفته سلطات القصر بأن يعثر على شاعر يقلب القصيدة إلى مدح في الخديوي حتى يقضي على الضجة التي أثيرت حولها.

وكان الشاعر المطلوب هو الشيخ عثمان الموصلي والطريقة التي اتبعها لقلب القصيدة هو أن شطر القصيدة فأخذ كل شطر من أبياتها وألف من عنده شطراً ثانياً له على نفس الوزن في مديح الخديوي يقلب المعنى:

ونشرتها مجلة «المشير» فأصبحت:

قــدوم ولكن لا أقــول ســـعـيـــد
على فــاجــر هجــوَ الملوك يريد

لأضــرابه بيت من اللؤم عــامــر
وملك وان طال المدى ســيـبـيـد

رمــتنا بكم مــقــدونيــا فــأصــابنا
رخــاء عن الجــدب المبــيــد بعــيــد

وهكذا.. وطبعاً هناك فرق كبير في البلاغة.

وقدم الثلاثة للمحاكمة، صاحب المطبعة وأحمد فؤاد صاحب المجلة ومصطفى لطفي المنفلوطي الشاعر.

ويظهر أن أحمد فؤاد كان يعلم أنه سيحكم عليه مهما دافع عن نفسه فانتهزها فرصة للنيل من الأسرة المالكة بدفاعه الشهير الذي قال فيه

«إن الرعية لم تسر حقاً بقدوم الخديوي، وإن محبة الرعية لملكها أمر اختياري، وما من ملك إلا وله من لا يسر بقدومه، والملك لا يستطيع ارغام رعيته على محبته؛ لأن الملك يملك أجسام الناس ولا يملك قلوبهم».

وانه ليس أول من جاهر وأعلن للناس مظالم الخديوي فان أحداً لا ينسى قصة مدفع سعيد التي نشرتها صحف مصر في وقتها.

فقد استورد الجيش مدفعاً جديداً من فرنسا وطلب سعيد تجربة المدفع في أحد الميادين العامة، ونقل المدفع إلى أحد الميادين حيث أمر بإطلاقه فاقترب منه أحد رجال الحاشية وقال:

- هل يأمر أفندينا بأن نتمهل قليلاً حتى يمر الناس.

فكان رد الخديوي سعيد:

- ليس عندي وقت، أطلق النار فنحن لم نستلم الناس بالعدد.

ثم ذكر الرجل وقائع أخرى نشرت عن الخديوي اسماعيل منها: أنه أراد يوماً أن يجمع مبلغاً من المال فصنع شارات من الجوخ وزعها على أهالي طنطا مقابل خمسمائة جنيه للشارة.

ومنها أن رجال اسماعيل حاصروا مرة بلدة بالوجه القبلي هرب إليها أحد خصوم اسماعيل فأمر بضربها بالمدافع.

ومنها أن الخديوي اسماعيل حين غضب على وزير ماليته اسماعيل صديق سلمه إلى حرسه الخاص فكبلوه بالحديد ووضعوه في غرارة (شوال) وأخذوه في باخرة نيلية وألقوه في وسط النيل..

والمهم أن الحكم صدر ببراءة صاحب المطبعة، وسجن أحمد فؤاد عشرين شهراً وتغريمه، وأيضاً سجن مصطفى لطفي المنفلوطي سنة وتغريمه.

وبعد ذلك بفترة كوفئ يوسف سليمان وكيل النيابة الذي حقق القضية واستطاع أن يكشف عن الشاعر بأن عين رئيساً للوزراء لفترة من الزمن.

الاحتفال بهروب العريس يوم الصباحية

إذا كانت مذكرات الأميرة جويدان قد بدأت بوصف زفاف مصري في عهد زوجها الخديوي عباس فان حفلات الزفاف المصرية لم تسترع انتباه الأميرة وحدها، بل استرعت انتباه كتاب أوروبيين قبلها وبعدها، وقد يكون من الجميل أن نختم هذا الكتاب بهذه القصة عن زفاف مصري استوحيتها من الكاتب الإنجليزي ادوارد لين الذي سنعرف خبره في سياق القصة.

فهل تتخيل أن العريس في القاهرة القديمة كان يهرب من عروسه صباح ليلة الدخلة في حفل يسمى «الهروبة».

ولنبدأ القصة من أولها:

أصبح حنفي ناضجاً وأراد الزواج، ولكنه لم يقبل الزواج بأي بنت من بنات الأسرة ممن وصفتهن له أمه، فقد كان يعلم أن لها غرضاً في تزويجه من إحدى بنات أخواتها، بينما أبوه يفكر في بنات إخوته.. وحتى لا يغضب أي الطرفين قرر الالتجاء إلى الخاطبة، ففي ذلك الوقت أي في أوائل القرن التاسع عشر حوالي عام ١٨٣٥، لم يكن من السهل رؤية

بنات الطبقة المتوسطة أو الأغنياء سافرات في مدينة القاهرة للانتقاء للزواج.

وقدمت له الخاطبة تقريراً بأوصاف العرائس اللاتي عندها.. والخاطبة هنا هي الخالة «أم علي» الدلالة التي تحضر كثيراً إلى الدار لتبيع الحلي والأقمشة وغيرها إلى السيدات، وهي في الوقت نفسه، وبحكم دخولها كثيراً إلى البيوت، تعرف الجميع، وترى البنات والشيخات، ففلانة بنت فلان جميلة رشيقة صغيرة، ولكنها لا تملك مالاً، وأهلها ليسوا أغنياء كأهل فلانة التي ليست في جمال الأولى... وهكذا... هذه سمينة، وتلك رفيعة، وثالثة طويلة، وأخرى قصيرة، و...

واستقر رأي حنفي على خطبة البنت نرجس. وذهبت أم حنفي وخالته وأخته مع الخاطبة لزيارة أم نرجس، للتعارف، وفي ذهنهن أنهن إذا لم تعجبهن العروس سيكتفين بالزيارة.

ودخلت نرجس تحمل صينية القهوة تقدمها لهن.. وجدن أن البنت عروس مقبولة لا يزيد سنها عن الرابعة عشرة، فالبنت إذا زاد سنها في ذلك الزمن عن هذا الحد، تعتبر قد فاتها قطار الزواج لأن بها عيباً ما خفياً.. واستطاعت البنت أن تقدم القهوة دون أن تسكبها من الأقداح، ثم إنهن قمن بتقبيلها واحتضانها والتمليس على شعرها الجميل... الخ.

وأثبت فحصهن أن العروس مقبولة، ولا عيب بها، فصرحن لأمها بغرضهن من الزيارة.

ووافق أهل العروس على الزواج بعد أن وصفت الخاطبة العريس لنرجس بأنه شاب صغير السن رشيق القوام حليق الذقن، حسن الهندام، يحب البقاء في البيت، ويكسب مالاً كثيراً.

وذهب حنفي، وأبوه، وبعض كبار أسرته إلى المقابلة وكان والد نرجس قد استدعى إخوة له وأقارب، وسأل أبو حنفي، عن المهر المطلوب فقيل له إنه ألفا ريال، ولكن أهل العريس استكثروا المبلغ، ودارت مساومة، انتهت بالاتفاق على ألف ريال، ثم قرأ الجميع الفاتحة كتأكيد للاتفاق، وحدد ميعاد دفع المهر وكتب الكتاب بعد يومين.

وفي اليوم الذي حدد، ذهب حنفي قبل الظهر ومعه الأصدقاء والأقربون إلى بيت نرجس، الذي اجتمع فيه عدد من أهلها .. واستقبلهم أبوها .. ولم يكن هذا الحفل الكبير قد اقتصر على الأقربين.

وجلس حنفي أمام أبي نرجس باعتباره وكيلاً للعروسة، على الأرض في مواجهة بعضهما وأمام الفقيه المأذون له بالتزويج من الوالي، وأمسك كل منهما اليد اليمنى للآخر بحيث يكون الابهامان مرفوعين متلاصقين.. ووضع المأذون فوق يديهما منديلاً، ثم أخذ يعلن كل من العريس وأبو العروسة ما يقولاه، وأشار إلى وكيل العروسة ليقول خلفه:

- زوجتك ابنتي نرجس البكر.. على صداق قدره.. ثم لحنفي:

- وأنا قبلت زواجها لنفسي وضمها لكتفي، وأتعهد بحمايتها، وليشهد الحاضرون على ما أقول.

وبعد انتهاء المراسم قرأ الحاضرون الفاتحة، ووزع الشراب المحلى بالسكر على الحاضرين، ووزعت مناديل مطرزة على أهل العروس، وأعطى المأذون منديل العريس وقد ربطت فيه نقود ذهبية.. وبقي الجميع لتناول الغداء .. واتفق على تحديد موعد ليلة الدخلة.

والزفاف الذي ذكرته هو عن وصف قدمه الكاتب الإنجليزي ادوارد وليام لين المولود سنة ١٨٠١ والمتوفى سنة ١٨٧٦ في كتابه «المصريون المعاصرون» (المعاصرون لعهده طبعاً) وهو الكتاب الذي ترجمته السيدة فاطمة المحجوب وطبع سنة ١٩٥٧ . ولين هذا إنجليزي أحب مصر، وعاش بها، وألف عنها، وترجم إلى الإنجليزية ألف ليلة وليلة، كما وضع قاموساً عربياً إنجليزياً.. وقد زار لين مصر ثلاث مرات الأولى عام ١٨٢٥ والثانية من عام ١٨٣٣ إلى ١٨٣٥ والثالثة من عام ١٨٤٢ إلى ١٨٤٩ فاستطاع أن يعرف كثيراً عن مصر والمصريين في ذلك العهد.

وتحددت ليلة الدخلة بعد عشرة أيام من عقد القران، وحددت ليلة الجمعة، فقد جرت العادة أن يحدد موعد الأفراح في ليلة الجمعة (أي مساء الخميس) أو ليلة الاثنين (أي مساء الأحد).

في الأيام العشرة بين الليلتين، ليلة كتب الكتاب، وليلة الدخلة،

أرسل حنفي ثلاث مرات بهداياه من الفاكهة والحلوى إلى أهل العروس، هذا طبعاً خلاف ما أرسله لعروسه نرجس نفسها من هدايا أخرى كشال أو قرط أو خلافه من الأشياء الثمينة.

وفي هذه الأيام، كانت أسرة نرجس مشغولة بشراء الجهاز أي أثاث ومنقولات منزل الزوجية، وهي أشياء كثيرة مختلفة، فمن الأرائك والصحاحير (صناديق محكمة لحفظ الملابس) والدواليب إلى الحصير والسجاد وأدوات المطبخ، ثم الثياب والمجوهرات، وغير ذلك من الأشياء التي تحتاجها العروس، التي انفق أبوها عليها ضعف ما دفعه حنفي من مهر.

وقد اهتم الأب بأن يكون كرسي العمامة فخماً غالي الثمن، فهذا الكرسي المصنوع من خشب الخيزران، وله مظلة وغطاء الحرير الطبيعي السميك المحلى بخيوط من الذهب لتوضع عليه عمامة العريس عندما يعود من عمله ويخلع ملابسه.. ولكن الأب رفض أن يشتري كرسياً آخر لعمامة العروسة، فهو ليس على هذه الدرجة من الثراء، وطبعاً لم تستطع البنت أو أمها الاعتراض أو إقناعه بضرورة شراء مثل هذا الكرسي.

ونقل الجهاز من دار والد نرجس إلى بيت العريس محمولاً على طابور طويل من الجمال سار حوله الأولاد والبنات وبعض الأحباء يغنون ويصخبون.

وفي بيت العريس جرت استعدادات أخرى، فقد كلف حنفي من علق الفوانيس والنجف، كبيرها وصغيرها، على جوانب البيوت الموجودة بالشارع الذي به البيت، كما علقت عشرات من القناديل الصغيرة بين الدور، وجميعها تضاء بالزيت، وزينت الخيوط والحبال التي ربطت بها الفوانيس بعدد كبير من الأعلام الحريرية الخضراء والحمراء، أما في البيت فان الباب قد فتح وأعدت الموائد للضيوف طوال هذه الأيام الثلاثة.

وكان الأصدقاء والمعارف والأهل، يرسلون إلى البيت صواني من النحاس الأحمر أو من الخشب المشغول والمنقوش مغطاة بمنديل من الحرير مطرزة بقماش آخر، وقد حملت الصواني هدايا من الأرز واللبن والشموع وغيرها.

وفي هذه الأيام الثلاثة أيضاً لم تنقطع فرقة موسيقية عن العزف كما أحضرت عدة راقصات وعدد من المغنين والمغنيات.

وفي نفس الفترة قامت الخاطبة أم علي التي عرفت حنفي على نرجس، وكذلك الداية المختصة بتوليد أم العروس والتي قامت على توليدها لنرجس، ثم البلانة المختصة بعمليات الاستحمام والتزيين والتقاط الشعر الزائد من جسد العروس، وأيضاً الدادة وهي التي حملت نرجس طفلة وقامت على تربيتها، والمرضعة التي أرضعت العروس وهي وليدة محافظة على صدر أمها من الترهل.

قامت هذه الفرقة من السيدات بشبك شيلان من الكشمير والحرير المخطط فوق الكتف الأيسر عند جنوبهن.. وركبت كل واحدة حماراً وسرن في موكب يتصدره عدة رجال يدقون الطبول.

وطاف هذا الموكب على بيت صديقات نرجس تدعوهن لمرافقتها إلى الحمام.. ويسمى هذا الركب موكب «المدهناك».

وكان أبو نرجس رغبة منه في التوفير، يريد أن يقلل من عدد المدهنات ولا يستأجر لهن حميرا أو طبالين، أو يشتري شيلان، ويكتفين بالسير على أرجلهن وإطلاق الزغايد بدل الطبول، ولكن زوجته لم يعجبها هذا فليس عندهم ألف نرجس.

وفي ظهر يوم الأربعاء خرجت العروس وخاصتها وصديقاتها إلى الحمام في زفة الحمام.. وقد تقدم الموكب رجلان يحمل كل منهما صينية مستديرة مغطاة بغطاء من الحرير وعليها الملابس الجديدة التي ستلبسها العروس بعد الحمام، وخلفهما السقاء.. والسقا هو رجل يحمل قربة كبيرة، والقربة هي بالونة ضخمة مصنوعة من الجلد تملأ بالماء يربطها السقا على ظهره ويدور يوزع بها المياه على البيوت التي لم تكن قد دخلتها المياه في ذلك الوقت.. واليوم هو يسير مع الموكب وقربته مملوءة، ومعه كوب من النحاس يصب فيه الماء من فتحة القربة ويسقي المارة ممن يطلبون الشرب تبركاً بالعروس.

وخلف العروس وصاحباتها سار رجلان أولهما حامل القمقم وهو

يحمل قمقما من الفضة (والقمقم يشبه زجاجة رائحة كبيرة) وبه ماء الورد أو ماء الزهر، وهو ينثر الماء على المارة بين حين وحين.. أما الرجل الثاني فحامل المبخرة، ويحمل مبخرة اختلط فيها البخور المعد لمنع الحسد والمختلط برائحة عطرة.

وكانت قريبات العروس وصديقاتها المتزوجات يسرن في طليعة الموكب، اثنتان، اثنتان، وهن يلبسن الحبرة الحريرية السوداء (جلبات يغطي الجسد كله).. ثم خلفهن العذارى يلبسن الحبرة البيضاء أو يتلفحن بشال أبيض، خلف الجميع سارت العروس وخلفها وحولها أربعة رجال يحمل كل منهم عمود مظلة قرنفلية زاهية اللون يظللن بها العروس.

والمهم في مظلة العروس أن يكون لونها زاهياً ملفتاً للأنظار، كالأحمر الوردي، أو تكون مخططة بألوان زاهية كالأحمر والأصفر.. الخ. وكان كل عمود من أعمدة المظلة التي يحملها الرجال ينتهي بمنديل مطرز معقود حول قمته، والمظلة ليس لها إلا فتحة واحدة من الأمام فهي مغلقة من أعلى ومن الخلف ومن الجانبين.

وكانت نرجس تلبس رداء يخفيها تماماً وقد غطيت بشال أحمر من قمة رأسها إلى قدميها فلم يظهر منها إلا القصبة، وهي قرص من الذهب رصع بالماس والزمرد واللؤلؤ منه من الأمام فروع من الماس، وغيره من المجوهرات وقد لبست فوق رأسها طرطوراً أبيض من الورق المقوى.

والقاهرة مدينة تغلب عليها الحرارة، كما أن ملابس نرجس العروس وسيرها تحت تلك المظلة يجعل جسدها يسخن ويفرز عرقه، لذا فقد سارت أمامها امرأة تحمل مروحة كبيرة من ريش النعام الأسود مزينة بمرآة في الجزء الأسفل من سطحها الأمامي، وسارت المرأة حاملة المروحة ووجهها للعروس وأخذت تمشي إلى الخلف تهوي لها.. وحول نرجس وخلفها سارت أربع من صديقاتها.

ومن الضروري عند خروج الموكب من منزل العروس أن ينعطف الموكب، ويسير ناحية اليمين حتى ولو كان الحمام من الناحية الأخرى، فانهم يتشاءمون من السير جهة اليسار، كما أنه لا يهم أن يسير

الموكب في الطريق الأقصر المؤدي إلى الحمام، بل عادة يكون السير في منعطفات وشوارع كثيرة بالحي ليراه أكبر عدد من الناس.

وعادة ما يكون والد العروس قد استأجر الحمام كله في تلك الليلة، فيخصص لابنته وصديقاتها وأهلها، وفي نهاية الموكب يسير بعض الموسيقيين والطبالين.

وتطلق النسوة الزغاريد بين حين وحين، وتجاملهن بعض السائرات في الطريق أو المتفرجات أمام دورهن من السيدات اللاتي يتصادف ويرين الموكب فيحيينه بزغرودة أو اثنتين.

وتقضي العروس وصاحباتها عدة ساعات بالحمام يلهون ويغتسلن ويأكلن، ويستمعن إلى الهوانم اللاتي تغني لهن لتسليتهن أثناء الاستحمام... وفي النهاية يعود الموكب إلى بيت العروس نرجس، والذي يدفع نفقات الحمام وزفة الحمام هو والد العروس.. أما في منزلها فيكون هناك عشاء قد أعد لها ولرفيقاتها ولغيرهن من الأهل والصحاب من الرجال والسيدات أحباب الأسرتين، وهذا العشاء على حساب العريس حنفي.. وبعد العشاء يستمر السهر والغناء والرقص، الذي تقوم به العوالم.

وكانت الحناء قد أعدت وعجنت في طست نحاسي كبير يشبه صينية كبيرة مما يوضع به الغسيل في أيامنا هذه.. وأخذت نرجس قطعة من الحناء وضعتها في راحة يدها.. وقامت كل من السيدات والصاحبات بوضع قطعة من النقود الذهبية «كنقوط» في كفها فلما امتلأ، ألصقت النقود على حافة الطست بالحناء، ثم أخذت قطعة أخرى، وفتحت كفها لتجمع نقوطاً جديداً.

وبعد جمع النقوط بدأت عملية تخضيب العروس وصاحباتها بالحناء فوضعت الحناء في كفيها وقدميها وربطت بقطع من القماش بقيت حتى صباح الخميس حيث أزيلت الخرق وبقي أثر الحناء ذو اللون الأحمر البرتقالي الداكن أو الفاتح حسب نوع الحناء.

وفي يوم الخميس خرجت نرجس من بيت أبيها إلى بيت حنفي في زفة العروس التي تشبه زفة الحمام، وإن زادت عليها.. وطبعاً ليست كل

الأسـر على نفس المستوى من الثراء لذلك فان بعضها يسـتغني عن زفة الحمام ويكتفي بزفة العروس هذه.

وقد سـار أمام الزفة رجلان يحملان السيوف ويتباريان، وليس على جسدهما غير السراويل، مثلهما مثل لاعبي الشيش، واثنان آخران من الفلاحين يرتديان الجلبات الصوفي ويتبارزان بالعصى المسماة نبابيت في لعبة التحطيب، وقد اشترك في السير أمام الموكب بعض من ذوي المهارات والحيل بألعاب مختلفة لأنهم يعلمون أن أسرتي العروسين ستجزل لهم العطاء.

ولما كان السقا رجلاً متخصصاً في حمل الأثقال، فان عمله يقتضي أن يحمل قربة الماء مليئة ويدور يفرغها في البيوت عدة مرات في النهار، فان بعض السقائين من ذوي العضلات القوية يقومون بعمل غريب هو حمل قربة مليئة بالرمل الممزوج بالماء لتصبح ثقيلة الوزن، يحملونها ساعات طويلة لا يقوى عليها سائر السقايين، ويصل وزن هذه القربة إلى حوالي المائة كيلو يحملها السقاء عند غروب شمس اليوم السابق للفرح ويظل يحملها طول الليل وطوال يوم الفرح وقبل الزفة.

وقد سار سقاء من هذا النوع في الزفة وهو لا زال يحمل قربته حتى غروب الشمس، أي أنه حمل القربة أربعاً وعشرين ساعة كان فيها تحت رقابة فلم يسمح له بالجلوس في هذه الساعات الطوال أو النوم، والطريقة الوحيدة التي سمح له فيها بالراحة كانت هي أن يقعد القرفصاء.

والسقاء يتحمل هذه المشقة لشيئين، الأول المكافأة التي ستدفع له، والثاني حصوله على لقب «قيم».. والسقائون يتنافسون في الحصول على هذا اللقب الذي يدل في نظرهم ونظر الناس على الصحة والقوة والقدرة على التحمل، ولعل هذا هو السبب في أننا لازلنا حتى اليوم نطلق على من يسير متباهياً بقوته الجسدية لقب «قيم» كنوع من السخرية، ذلك أن عصرنا الحديث لا يحتاج إلى القوة الجسدية لغير أغراض الصحة، ويحتاج أكثر منها إلى القوة العقلية والذهنية بعد أن أصبح كل شيء يخضع للعقل والعلم.

والمهم أن زفة العروس نرجس وصلت إلى بيت عريسها حنفي، حيث صعدت إلى الدور العلوي المخصص للحريم، وكانت قد أعدت لهم وليمة فتناولوا الطعام ثم هنأوا وانصرفوا وبقي مع نرجس أمها وأختها وقليلات من القريبات كخالتها وعمتها، وكذا بقيت البلانة فهذه هي ليلة الدخلة.

وفي هذا الوقت كان حنفي جالساً مع أصحابه ومدعوويه بالدور الأرضي المسمى بالسلاملك والمخصص للرجال، وبعد العصر وقبل الغروب ذهب إلى الحمام وبدل ملابسه، ثم عاد وتناول مع أصحابه طعام العشاء .

ثم خرج مع أصحابه في «زفة العريس» إلى أحد المساجد القريبة، وفي طليعة الزفة الموسيقيون بطبولهم ومزاميرهم، وعند الذهاب للمسجد لم يكن هناك نظام للزفة.

ولكن عند خروج حنفي وأصحابه من المسجد نظمت الزفة وسارت ببطء عائدة إلى منزل العريس الذي من المفروض أن لا يبدي لهفة على الذهاب إلى عروسه، لذا يدور الموكب بطرقات المدينة غير متعجل.

وعند العودة يسير الموسيقيون أمام الزفة يتبعهم حاملو المشاعل، وخلفهم رجلان يحملان عارضة أو عموداً ممدوداً أفقياً، يحمل كل منهما طرفه على كتفيه، وعلق به حوالي الستين قنديلاً، أو أكثر في حلقات أربع كل حلقة فوق الأخرى، وترسل هذه القناديل وغيرها من المشاعل ضوءاً شديداً ساطعاً يشبه ضوء الكشافات ويبهر العيون.

وخلف الأضواء والمشاعل سار حنفي في حلقة كبيرة من أصدقائه وقد ارتدى قفطاناً مخططاً بخطوط حمراء وجبة حمراء، وعلى يمينه ويساره اثنان من أصدقائه وقد لبسا ملابس تشبه ملابسه، وحولهم باقي الأصحاب يمسك بعضهم شمعة، وبعضهم يمسك بفرع تمر حنة مزهر، أو فرع مزهر لنوع آخر من الأشجار، أما حنفي وصاحباه فلم يحملوا شيئاً.

وقد لاحظنا في زفة العروس وزفة العريس أن كلاً منهما يسير ومعه اثنان يلبسان مثله تماماً، وذلك لأن المصريين يخافون من العيون الحاسدة، ويعتقدون أن هذا السير الثلاثي يكسر من حدة العين.

وبين لحظة وأخرى يقف الموكب لحظة ليستمع إلى غناء أحد الواقفين

بالحلقة لإحدى أغنيات الزفاف.. وكما يتوقف الموكب يتوقف دق الطبول حتى لا يغطي على صوت المغني.. وعادة كان يسير بعض الموسيقيين أيضاً خلف الموكب.. وحين يصل الموكب إلى دار العريس، يدفع النقوط للموسيقيين، ثم يترك أصدقاءه يجلسون للتدخين وشرب القهوة والشربات ويصعد إلى العروس.

ولما كان بحنفي بعض الخجل فانه لم يصعد فوراً، وانتظر حتى قاده أحد أصدقائه وصعد به درجات الحريم، ثم تركه ليدخل إلى الحجرة التي بها عروسه نرجس.

وكانت نرجس واقفة ومعها البلانة، فأعطى حنفي البلانة بعض النقود فتركت الحجرة وخرجت. ووقف أمام عروسه وحدهما وقد غطت رأسها ووجهها بشال.

وأخرج حنفي مبلغاً قدمه لنرجس «ثم كشف وجهها».. ثم مد يده ليرفع الشال، وتمنعت قليلاً، أو تصنعت التمنع، ولكنه أزاح الغطاء عن وجهها وهو يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»! ثم نظر إلى وجهها وقال: «ليلة مباركة».

وردت عليه بتمتمة مخنوقة: «الله يبارك فيك». ولكن صوتها كان غير مفهوم.

وكانت المراقبات من السيدات قد شاهدن المنظر من خارج باب الحجرة فانطلقت زغاريدهن.

ونزل حنفي إلى أصحابه، وبقي معهم حوالي الساعة، ثم عاد إلى عروسه.

وفي صباح اليوم التالي أو «الصباحية» حضر إلى الدار بعض أصدقاء حنفي، فخرج حنفي معهم وهربوا إلى الريف في نزهة قضوا فيها النهار كله، وتسمى هذه النزهة: «الهروبة».

وقبيل الهروب نجحت محاولات الأصدقاء في إعادة حنفي إلى منزله الجديد، لأنه من المفروض أن حنفي باعتباره عريساً جديداً لا يندفع إلى البيت مظهراً ما عنده من عواطف، كما أنه لا يقبل على سجن الزواج ومسؤولياته بمحض اختياره، ولهذا فهو قد هرب صباح زفافه.

وبعد هذه المسرحية التدللية المرحة استطاع أصحابه إجباره على العودة لعش الغرام.. وهكذا عاد حنفي عند الغروب في زفة صغيرة، تقدمها بعض الموسيقيين وقد حمل أصدقاؤه الورود.

وعادة ما تكون حفلة الهروب هذه على نفقة أصدقائه اللذين يشتركون في دفع نفقاتها.

وفي اليوم السابع للزفاف، أو «السبوع» استقبلت نرجس صديقاتها وقريباتها اللاتي أتين لزيارتها وتقصي أخبار زواجها وعريسها، وقد حضرت بعضهن في الصباح وحضرت أخريات في المساء.. وفي المساء أيضاً استقبل حنفي بعض أصدقائه، واحتفل بهم بإقامة حفلة ذكر ختمت بعشاء.

وكان اليوم أربعين بعد ليلة الدخلة هو أول يوم يسمح فيه للعروس بالخروج من المنزل، فخرجت نرجس في الصباح مع صديقاتها إلى الحمام، وعدن في العصر إلى المنزل وتناولن الطعام وانصرفن.. أما سبب اختيار اليوم الأربعين لختام شهر العسل فيبدو أن المصريين من الفراعنة كانوا يحددون الشهر بأربعين يوماً.

المهم أنه بعد هذا اليوم سارت حياة نرجس وحنفي عادية، وقد أنجبا صبياناً وبناتٍ، ولم أزرهما لأنهما عاشا قبل عصري بأكثر من قرن كامل لأنهما من سكان قاهرة القرن التاسع عشر.

وهذان العروسان وزفافهما الذي قلت إني أخذت وصفه من كتاب سير ادوارد لين عن مصر هو وصف لزفاف عروسين من الطبقة المتوسطة، أما الطبقات الغنية فهناك بعض الاختلافات التي أوردها لين.

فهناك وصف لزفاف بنت السيد عمر مكرم نقيب أشراف القاهرة وقت محمد علي باشا؛ والذي بايع محمد علي بالولاية على مصر، يحدثنا لين عن أشياء عجيبة لا يمكن تصديقها ولا تصديق أن أحداً يقوم بها إلا بسبب من الفقر الشديد المؤلم؛ فمثلاً يقول السير لين وان قرر انه لم ير ذلك، إنما ينقل عن أصدقاء مصريين: إن رجلاً سار أمام زفة العروس وقد أحدث شقا في بطنه وأخرج أمعاءه وحملها أمامه على

صينية من الفضة وسار أمام الزفة حتى نهايتها، ثم أعاد أمعاءه إلى مكانها، وظل طريح الفراش عدة أيام حتى شفي من آثار هذا العمل الأحمق الذي يبعث على التقزز والاشمئزاز، كما أن رجلاً آخر في نفس الحفل أغمد سيفاً في ذراعه أمام جموع المتفرجين في الزفة، وربط الجرح على السيف دون أن يخرجه من ذراعه بعدد من المناديل تضرجت بالدماء.. وقد فعل الرجلان هذه الأفعال بسبب الطمع في مكافأة سخية.

ولكن خلاف هذين المنظرين البشعين في فرح بنت لرجل معين له مكانة خاصة وشهرة خاصة، نجد لين يصف زفة الأغنياء من أصحاب الحرف أو غيرهم من الأعيان بأن الزفة الفاخرة كان يسير فيها أحياناً عدد من العربات تحمل كل منها جماعة ينتمون إلى حرفة أو تجارة واحدة، وكل جماعة تقوم باستعراض فيؤدون صنعتهم أو حرفتهم والعربة سائرة في الموكب، وتمثل عادة في هذه الأفراح جميع الحرف المعروفة في القاهرة، كما أن عربة خاصة كانت تسير، وبها جماعة يصنعون القهوة ويقدمونها لمن يطلبها من المتفرجين والمارة.

وكانت العروس تركب عربة أوروبية مغلقة، أو تركب هي وبقية النساء حميراً.. وفي أسبوع الزفاف تستحضر إلى الدور فرق طوافة تقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكاهية التافهة التي يقوم الضحك فيها على تمثيل مناظر الضرب والخيانة.

وفي بعض بيوت العرسان الأغنياء كانت تعلق ثريا أو نجفة كبيرة ضخمة أمام الدار، تبلغ من ضخامتها أنها تجذب أنظار الناس وتجعلهم يتجمعون حولها للتفرج عليها، والحديث عن ثراء العروسين وأهلهما، ولما كان أهل الدار يخافون من عيون الناس الحاسدة التي قد تتسبب في سقوط النجفة أو في نوع آخر من الأذى للعروسين أو أحدهما؛ فانهم يسقطون كلما رأوا تجمعاً كبيراً جرة من أعلى الدار إلى الحوش فتنكسر وتحدث ضجة تستلفت الأنظار الحاسدة وتبعد حسدها.

بقيت أفراح الطبقات الفقيرة، وهذه قال لين عنها إنها لا تختلف عن أفراح الطبقات المتوسطة إلا في التقليل من المظاهر والنفقات...

الفهرس



مطابع الأهرام بكورنيش النيل

سلسلة كتب شهرية، توزع مجانا مع ثمانى صحف عربية، تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة.. بكلفة لا تثقل عليه. كل الأطراف المشاركة فى هذا المشروع تتنازل عن حقوقها لصالح القارئ.

القاهرة مصر
القبس الكويت
الأيام البحرين
الحياة السعودية
الثورة سورية
البيان الإمارات
السفير لبنان





فى عام ١٩٠٥ تعرف خديو مصر عباس حلمى الثانى، فى باريس بسيدة مجرية الأصل، هى الكونتيسة «ماى دى توروك»، فصادقها وعاد بها إلى مصر، واتخذها عشيقة شبه رسمية له، وخصص لإقامتها «سراى مسطرد»، بينما كان يقيم مع زوجته وأولاده فى قصر القبة.. وبعد قليل، اعتنقت الإسلام وغيّرت اسمها إلى جويدان بنت عبدالله ليتزوجها الخديو، على الرغم من اعتراض أصدقائه وعلى رأسهم سعد زغلول، الذى وصفها فى مذكراته بأنها «غانية كانت تتردد على بيوت العاهرات ويتردد عليها كثير من شباب مصر». وفضلا عن اعتراض أم الخديو فقد اعترض كذلك السلطان العثمانى، وانضمت جريدة «العلم»، لسان حال الحزب الوطنى بزعامة محمد فريد، إلى زوجته الأولى فى التنديد بهذا الزواج، الذى انتهى بالانفصال عام ١٩١٣، وغادرت الأميرة جويدان مصر لتسيح فى الدنيا.

وفى هذه المذكرات، تقدم الكونتيسة «ماى دى توروك» انطباعاتها عن مجتمع السادة.. فى بداية القرن!